ثلاثة عظماء من القرآن الكريم

عالم وحاكم وحكيم

جمعية القرآن الكريم

الكتاب:	ثلاثة عظماء من القرآن الكريم (عالم وحاكم وحكيم)
تأليف:	أحمد حسين عودة
إعداد ونشر:	جمعية القرآن الكريم
الطبعة الأولى:	١٤٣٤هـ - ٢٠١٣م لبنان - بيروت

جميع حقوق الطبع محفوظة

ثلاثة عظماء
من القرآن الكريم

عالم وحاكم وحكيم

بسم الله الرحمن الرحيم

الإهداء

إلى الرسول الخاتم الحبيب المصطفى محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

إلى العترة الطاهرة أهل بيت النبوة والعصمة عليهم السلام.

إلى أولياء الله تعالى والمراجع العظام.

إلى أرواح شهداء المقاومة الإسلامية.

إلى روح والدي الحاج حسين علي.

أهدي عملي المتواضع هذا.

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدّمة

الحمد لله الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى، وأفضل الصلاة وأتمّ التسليم على خاتم الأنبياء والرّسل محمد بن عبد الله ﷺ وعلى آل بيته الطاهرين.

يقول سبحانه: ﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾[1].

نعيش اليوم في عصر يحمل وجهين متناقضين، فمن جهة نشهد تطوراً تقنياً وتقدماً صناعياً، ومن جهة أخرى نشهد تخلفاً حضارياً إنسانياً، حيث تتعرض قيم البشرية السليمة والفطرة الإنسانية الطبيعية إلى شتى أنواع الانحرافات، وتتعرض أمتنا الإسلامية وديننا الحنيف إلى أشد أنواع الهجوم الثقافي والتبليغي، فلم يترك أعداء الدين وسيلة إلاّ استخدموها لنشر الفساد ودحض الدين القويم وحرفه عن الصراط المستقيم. لكن المولى تعالى لم يتركنا عرضة للفساد والانحراف من دون أن يزودنا بوسائل الدفاع حيث زودنا بعنصري العقل والإرادة؛

(١) سورة هود، الآية: ١٢٠

العقل لتبصر الحق ونكتشفه ونميّزه عن الباطل، والإرادة لنختار ما نراه صالحاً يحقق أهداف الحق والحقيقة.

والإنسان كما أنه بحاجة إلى رعاية سلامته الجسدية من خلال التغذية السليمة، فإنه بحاجة أيضاً إلى بقاء فكره في أمان من الانحراف، لذلك عليه الارتباط بصورة دائمة بخالقه عزَّ وجلَّ، وذلك عبر الوسائل التي وضعها المولى سبحانه بين أيدينا وهي ينابيع الرحمة الإلهية التي تفيض علينا باستمرار.

إن القرآن الكريم، ذلك النور الرباني والرسول الخاتم وأهل بيته عليهم السلام هم الأنوار الإلهية وهم الرحمة التي لا ينقطع فيضها، وهم سفينة النجاة التي يجب أن نتمسك بها، وهم ينابيع الفيض التي يجب الارتواء من مائها الزلال، لذلك علينا أن نتوجه أكثر فأكثر إلى القرآن الكريم ونتدبر في آياته وتعاليمه، ونستفيد من أحكامه وعبره، فالقرآن هو الرحمة الكبرى حيث نزل من خزائن الغَيْب على قلب نبينا صلى الله عليه وآله وسلم، ومنه فاض على جميع الوجود.

لقد اقتضت سنة الهداية الإلهية، أن يرسل الرسل عن طريق امدادهم بالوحي، وهم الذين اختارهم المولى تعالى لتولّي مسؤولية هداية العباد وارشادهم، والتصدي للفساد والمفسدين ومواجهة الظالمين، وتأمين سبل المعرفة في مرافق الحياة المختلفة وذلك قولاً وفعلاً، لذلك شاهدنا ـ عبر التاريخ ـ أن الأنبياء وأوصيائهم والأولياء

الصالحين قد حملوا مشاعل الهداية والنور لئلاّ يكون للناس على الله حجة، وجاهدوا في سبيل ايصال البشرية إلى كمالها المطلوب وتشكيل مجتمع بشري سليم وقويم من خلال دعوة الناس إلى عبادة الإله الواحد الأحد وإقامة العدل على وجه البسيطة.

من هنا فإن القرآن الكريم يحدثنا عن الأنبياء والأولياء عبر التاريخ حيث سلكوا طريق الهداية وتحملوا العذابات والآلام وقدموا كل ما يملكون ـ حتى الأنفس ـ في سبيل سعادة البشرية وخلاصها.

بناء عليه، جاء هذا الكتاب ليصور لنا قصة ثلاثة أولياء ربانيّين تحدّث عنهم القرآن وظهرت عظمتهم في التاريخ كل في اتجاه رسمه له المولى عزَّ وجلَّ، وهم يمثلون قيمَ الإنسانية الصحيحة والسليمة، ويحققون الهدف الأسمى الذي خلقت البشرية من أجله، وهو إقامة الحق والعدل ونشر العلم والمعرفة والحكمة في سبيل بلوغ السعادة الدنيوية والأخروية.

هذا الكتاب يشتمل على ثلاثة فصول: الفصل الأول: يتناول ولي الله الخضر عليه السلام الرجل العالم والمربي، فيحكي قصته مع نبي الله موسى عليه السلام حيث قَصَده ليتعلم منه مما علّمه الله سبحانه، هذا بالإضافة إلى الدروس والعبر المستفادة من ذلك اللقاء الذي جرى بين العالم الرباني والنبي العظيم عليه السلام.

ويتحدث الفصل الثاني على رجل عظيم آخر وولي من الأولياء

أتاه الله من القوة والسلطة والنفوذ ما لم يأت رجل غيره حيث داس الأرض شرقها وغربها وأقام العدل بين الشعوب التي مرّ عليها، وبنى سداً عظيماً، قل نظيره في التاريخ، عنيت بذلك **«ذا القرنين»**.

أما الفصل الثالث: فيحكي قصة لقمان الحكيم عليه السلام ذلك الرجل العظيم الذي أدبه المولى تعالى بأدبه وعلّمه الحكمة فكان رجلاً كثير التفكّر، أعطي الحكمة وصرفت عنه البلوى، وكان من أمره أن صار مَضْرَبَ المثل، فصار اسمه قرين الحكمة.

على أنّ في قصص هؤلاء العظماء الثلاثة فوائد جمة، ففيها موعظة وذكرى للمؤمنين، وأثرها في التربية والتهذيب غير خاف على أحد، هذا بالإضافة إلى العبر والدروس التي يمكن أن نستقيها منها، كما أن نزولها على قلب الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم فيه شيء من التسلية لقلبه الشريف، حكاية لما جرى على من سبقه من الأنبياء والأولياء والصالحين.

جعلنا الله سبحانه وتعالى ممن يستمع القول فيتبع أحسنه، ونسأله حسن العاقبة. أسأل المولى تعالى التوفيق لكل من يقرأ هذا الكتاب والحمد لله رب العالمين.

أحمد حسين عودة

الجمعة ١٠ شهر رمضان ١٤٣٤هـ.ق.

الموافق ١٨ تموز ٢٠١٣م

الفصل الأول

الخضر العالم

- الخضر الرجل العالم
- قصة الخضر مع موسى عليه السلام
- مهمّة الخضر
- القصة في مصادر اليهود
- دروس وعبر

الخضر الرجل العالم

يقول تعالى وهو يحكي قصة ذلك العالم الجليل الذي طلبه نبي الله موسى عليه السلام ليتعلم منه: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لاَ أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَو أَمْضِيَ حُقُبًا﴾ ﴿فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا﴾ ﴿فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا﴾ ﴿قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنْسَانِيهُ إِلاَّ الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا﴾ ﴿قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا﴾ ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا﴾ ﴿قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾ ﴿قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِي صَبْرًا﴾ ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا﴾ ﴿قَالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللهُ صَابِرًا وَلاَ أَعْصِي لَكَ أَمْرًا﴾ ﴿قَالَ فَإِنْ اتَّبَعْتَنِي فَلاَ تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ ﴿فَانطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا﴾ ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ ﴿

قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا﴾ ﴿فَانطَلَقَا حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا﴾ ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ ﴿قَالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا﴾ ﴿فَانطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ ﴿قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾ ﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ ﴿وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾ ﴿فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾ ﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾ ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا﴾ ﴿فَأَتْبَعَ سَبَبًا﴾ ﴿حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا﴾ ﴿قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُكْرًا﴾ ﴿وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَى وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا﴾

﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا﴾ ﴿حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَى قَوْمٍ لَمْ نَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سِتْرًا﴾ ﴿كَذَلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا﴾ ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا﴾ ﴿حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لاَ يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلاً﴾ ﴿قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا﴾ ﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا﴾ ﴿آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انفُخُوا حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا﴾ ﴿فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا﴾ ﴿قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾ [1].

(١) - سورة الكهف: الآيات ٦٠- ٩٨.

الخضر كان نبيا من الأنبياء وقد عاصر نبي الله موسى عليه السلام، وقد جاء في الروايات أن الله رزقه طول الحياة فهو حي لم يمت بعد، وقد طال البحث عن شخصية الخضر بين القوم كما في مطولات التفاسير وتكاثرت القصص والحكايات في رؤيته[1]. لقد تحدث القرآن الكريم عن رجل عالم من دون أن يسميّه بالخضر، وقد عبّر عن معلّم موسى عليه السلام بقوله: ﴿عَبْداً مِنْ عِبادِنا آتَيْناهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنا وعَلَّمْناهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْماً﴾[2]. والآية توضح المقام الخاص للعبودية والعلم والمعرفة، لذا فإنّه غالبا ما يوصف بالرجل العالم.

أمّا الرّوايات الإسلامية وفي مختلف مصادرها عرّفت هذا الرجل باسم (الخضر)، ومن بعض هذه الرّوايات نستفيد بأنّ اسمه الحقيقي كان (بليا بن ملكان)، أمّا الخضر فهو لقب له، حيث أنّه أينما كان يطأ الأرض فإنّ الأرض كانت تخضر تحت قدميه.

البعض احتمل أنّ اسم الرجل العالم هذا هو(إلياس)، ومن هنا ظهرت فكرة أن إلياس والخضر هما اسمان لشخص واحد. ولكن المشهور والمعروف بين المفسّرين والرواة هو الأوّل.

وطبيعي أن نقول: إنّ اسم الرجل العالم أيّا كان فهو غير مهم لا

(١) - الميزان في تفسير القرآن، ج١٣، ص: ٣٣٩.

(٢) - سورة الكهف: آية ٦٥.

لمضمون القصّة ولا لقصدها، إذ المهم أن نعرف أنّه كان عالما إلهيا، شملته الرحمة الإلهية الخاصّة، وكان مكلّفا بالباطن والنظام التكويني للعالم، ويعرف بعض الأسرار، وكان معلّم موسى بن عمران عليه السلام بالرغم من أنّ موسى عليه السلام كان أفضل منه من بعض الجوانب.

وهناك أيضا آراء وروايات مختلفة فيما إذا كان الخضر نبيّا أم لا. ففي المجلد الأوّل من أصول الكافي وردت روايات عديدة تدل على أنّ هذا الرجل لم يكن نبيّا، بل كان عالما مثل (ذو القرنين) و(آصف بن برخيا) [1].

عن جعفر بن محمد عليه السلام أنه قال: **«إن الخضر كان نبيا مرسلا، بعثه الله تبارك وتعالى إلى قومه، فدعاهم إلى توحيده، والإقرار بأنبيائه ورسله وكتبه، وكانت آيته أنه كان لا يجلس على خشبة يابسة ولا أرض بيضاء إلا أزهرت خضراء، وإنما سمي خضرا لذلك، وكان اسمه تاليا بن ملكان بن عابر بن أرفخشد بن سام بن نوح عليه السلام، وإن موسى لما كلمه الله تكليما، وأنزل عليه التوراة وكتب له في الألواح من كل شيء موعظة وتفصيلا لكل شيء، وجعل آيته في يده وفي عصاه، وفي الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم، وفلق البحر، وأغرق الله عزّ وجل فرعون وجنوده، وعملت البشرية فيه حتى قال في نفسه: ما أرى**

(١) - الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج٩، ص: ٢٣٥.

أن الله عزَّ وجل خلق خلقا أعلم مني. فأوحى الله عزَّ وجل إلى جبرائيل عليه السلام: يا جبرائيل، أدرك عبدي موسى قبل أن يهلك، وقل: له: إن عند ملتقى البحرين رجلا عابدا فاتبعه وتعلم منه، فهبط جبرائيل عليه السلام على موسى عليه السلام بما أمره به ربه عز وجل، فعلم موسى عليه السلام أن ذلك لما حدثته به نفسه»[1].

إنّ قصّة موسى والخضر عليهما السلام لها أبعاد عجيبة. ففي القصّة يواجهنا مشهد عجيب نرى فيه نبيّا من أولي العزم بكل وعيه ومكانته في زمانه يعيش محدودية في علمه ومعرفته من بعض النواحي، وهو لذلك يذهب إلى معلم (هو عالم زمانه) ليدرس ويتعلم على يديه، ونرى أنّ المعلم يقوم بتعليمه دروسا يكون الواحد منها أعجب من الآخر. ثمّ إنّ هذه القصّة تنطوي- كما سنرى- على ملاحظات مهمّة جدّا.

(١) - البرهان في تفسير القرآن، ج٣، ص: ٦٤٥.

قصة الخضر مع موسى عليه السلام

في أوّل آية نقرأ قوله تعالى: ﴿وإذْ قالَ مُوسى لِفَتاهُ لا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَو أَمْضِيَ حُقُباً﴾[1].

إنّ المعنيّ بالآية هو بلا شك موسى بن عمران عليه السلام النّبي المعروف من أولي العزم، بالرغم ممّا احتمله بعض المفسّرين من أنّ موسى المذكور في الآية هو غير موسى بن عمران عليه السلام، وسوف نرى- فيما بعد- أنّ اعتماد هذا الرأي كان بسبب عدم استطاعتهم حل بعض الإشكالات الواردة في القصّة، في حين أنّه كلما ورد اسم (موسى) في القرآن فالمراد به موسى بن عمران[2].

أمّا المعني من (فتاه) فهو كما يقول أكثر المفسّرين؛ وكما تشير إلى ذلك العديد من الرّوايات: يوشع بن نون، الرجل الشجاع الرشيد المؤمن من بني إسرائيل. و(مجمع البحرين) هو محل التقاء البحرين، وهناك كلام كثير بين المفسّرين عن اسم هذين البحرين، ولكن- بشكل عام- يمكن إجمال الحديث بثلاثة احتمالات هي:

أوّلاً: المقصود بمجمع البحرين هو محل اتصال **«خليج العقبة»** مع **«خليج السويس»** (إذا المعروف أنّ البحر الأحمر يتفرع شمالا إلى

(١) - سورة الكهف: آية ٦٦.

(٢) - الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج٩، ص: ٣١١.

فرعين: فرع نحو الشمال الشرقي حيث يشكّل خليج العقبة، والثّاني نحو الشمال الغربي ويسمى خليج السويس، وهذان الخليجان يرتبطان جنوبا ويتصلان بالبحر الأحمر).

ثانياً: المقصود بمجمع البحرين هو محل اتصال المحيط الهندي بالبحر الأحمر في منطقة **«باب المندب»**.

ثالثاً: محل اتصال البحر المتوسط (الذي يسمّى- أيضا- ببحر الروم والبحر الأبيض) مع المحيط الأطلسي، يعني نفس المكان الذي يطلق عليه اسم (مضيق جبل طارق) قرب مدينة **«طنجة»**.

ويستبعد صاحب تفسير الأمثل الاحتمال الثاني والثالث، ويبقى الاحتمال الأوّل هو الأقرب من حيث قربه إلى مكان موسى عليه السلام. وما يرجح هذا الرأي هو ما يستفاد من الآيات- بشكل عام- من أنّ موسى عليه السلام لم يسلك طريقا طويلا بالرغم من أنّه كان مستعدا للسفر إلى أي مكان لأجل الوصول إلى مقصوده، وفي بعض الرّوايات إشارة إلى هذا المعنى أيضا.

كلمة **«حقب»** تعني المدّة الطويلة والتي فسّرها البعض بثمانين عاما، وغرض موسى عليه السلام من هذه الكلمة، هو أنّني سوف لا أترك الجهد والمحاولة للعثور على ما ضيعته ولو أدّى ذلك أن أسير عدّة سنين.

ومن مجموع ما ذكر أعلاه يتبيّن لنا أن موسى عليه السلام كان يبحث عن شيء مهم، وقد أقام عزمه ورسّخ تصميمه للعثور على مقصوده، وعدم التهاون في ذلك إطلاقا، لأن الشيء الذي كان موسى عليه السلام مأمورا بالبحث عنه له أثر كبير في مستقبله، وبالعثور عليه سوف يفتتح فصل جديد في حياته.

نعم، إنّه عليه السلام كان يبحث عن عالم يزيل الحجب من أمام عينيه ويريه حقائق جديدة، ويفتح باب العلوم أمامه، وسنعرف سريعا أنّ موسى عليه السلام كان يملك علامة للعثور على محل هذا العالم الكبير، وكان عليه السلام يتحرك باتجاه تلك العلامة[1].

﴿فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا﴾

أي فانطلقا يمشيان، فلما بلغا مجمع بينهما، وهو المكان الذي وعده الله بلقائه عنده، نسيا حوتهما فاتخذ الحوت طريقه في البحر مسلكا وصار الماء كالقنطرة عليه، فكان ذلك للحوت سربا[2]، ولموسى وفتاه عجبا.

ولا شك أن حياة الحوت بعد موته كانت لموسى معجزة، وأما كون ماء البحر صار كالقنطرة عليه أو كأي وضع آخر، فليس بالواجب علينا أن نعتقده إلا إذا ثبت بالنص القاطع.

---

(١) - الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج٩، ص: ٣١١- ٣١٣.

(٢) - (سرب) على وزن (جرب) كما يقول الراغب في مفرداته، وهي تعني السير في الطريق المنحدر، و(سرب) على وزن (حرب) تعني الطريق المنحدر.

روي أن موسى عليه السلام أمر بحمل حوت مملح معه وقيل له: متى فقدت الحوت فهو الموضع المقصود، فأخذ حوتا وجعله في مكتل (قفة) ثم انطلق ومعه فتاه حتى إذا أتيا الصخرة وكانت عند مجمع البحرين، فناما، واضطرب الحوت في المكتل وخرج منه وسقط في البحر.

روى البخاري ومسلم أن الله تعالى قال لموسى: خذ نونا (حوتا) ميتا فهو حيث ينفخ فيه الروح، فأخذ ذلك فجعله في مكتل، وقال لفتاه: لا أكلفك إلا أن تخبرني بحيث يفارقك الحوت، قال: ما كلفت كثيرا، فبينما هما في ظل صخرة إذ تسرّب الحوت حتى دخل البحر وموسى نائم فقال فتاه: لا أوقظه، حتى إذا استيقظ نسي أن يخبره[1].

هناك كلام كثير بين المفسّرين عن نوعية السمك الذي كان معدا للغذاء ظاهرا هل كانت سمكّة مشوية، أو مملّحة أو سمكّة طازجة حيث بعثت فيها الحياة بشكل إعجازي، وقفزت إلى الماء وغاصت فيه، هناك كلام كثير بين المفسّرين. وفي بعض كتب التّفسير نرى أنّ هناك حديثا عن عين تهب الحياة، وأنّ السمكة عندما أصابها مقدار من ماء تلك العين عادت إليها الحياة.

وهناك احتمال آخر وهو أن السمكّة كانت حيّة، بمعنى أنّها لم تكن

(١) - تفسير المراغي، ج١٥، ص: ١٧٥- ١٧٦.

قد ماتت بالكامل، حيث يوجد بعض أنواع السمك يبقى على قيد الحياة فترة بعد إخراجه من الماء، ويعود إلى الحياة الكاملة إذا أعيد في هذه الفترة إلى الماء.

وفي تتمة القصّة، نقرأ أنّ موسى وصاحبه بعد أن جاوزا مجمع البحرين شعرا بالجوع، وفي هذه الأثناء تذكّر موسى عليه السلام أنّه قد جلب معه طعاما، وعند ذلك قال لصاحبه[1]: ﴿فَلَمَّا جاوَزا قالَ لِفَتاهُ آتِنا غَداءَنا لَقَدْ لَقِينا مِنْ سَفَرِنا هذا نَصَباً﴾.

وفي هذه الأثناء قال له صاحبه: ﴿قالَ أَ رَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وما أَنْسانِيهُ إِلَّا الشَّيْطانُ أَنْ أَذْكُرَهُ واتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَباً﴾. أي قال له فتاه: أرأيت ما حدث لي حين التجأنا إلى الصخرة التي بمجمع البحرين؟ إني نسيت أن أخبرك بما حدث من الحوت، إنه حيّ واضطرب ووقع في البحر واتخذ سبيله فيه سبيلا عجبا. وذاك أن مسلكه كان كالطاق والسّرب، وما أنساني ذكره إلا الشيطان.

﴿قالَ ذلِكَ ما كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلى آثارِهِما قَصَصاً﴾: قال موسى: هذا هو الذي نطلب لأنه علامة الفوز بما نقصد، فرجعا على طريقهما يقصان آثار مشيهما، فوجدا عند الصخرة في مجمع البحرين عبدا صالحا من عباد الله، وهو الخضر في رأي الأكثرين، وكان مسجى بثوب أبيض،

(١) - الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج٩، ص:٣١٣- ٣١٤.

فسلّم عليه موسى، وكان قد علّمه الله من لدنه علما من غير وساطة معلم بشر: ﴿فَوَجَدا عَبْداً مِنْ عبادنا آتَيْناهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدنا وعَلَّمْناهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْماً﴾. استخدام عبارة ﴿عَبْداً مِنْ عِبادنا﴾ فهي تبيّن أن أفضل فخر للإنسان هو أن يكون عبدا حقيقيا للخالق جلّ وعلا، وإنّ مقام العبودية هذا يكون سببا في شمول الإنسان بالرحمة الإلهية، وفتح أبواب المعرفة والعلم في قلبه.

كما أنّ استخدام عبارة: ﴿مِنْ لَدُنَّا﴾ تبيّن أنّ علم ذلك العالم لم يكن علما عاديا، بل كان يعرف جزءا من أسرار هذا العالم، وأسرار الحوادث التي لا يعلمها سوى الله تعالى.

أمّا استخدام (علما) بصيغة النكرة فهو للتعظيم، ويتبيّن من ذلك أنّ ذلك الرجل العالم قد حصل من علمه على فوائد عظيمة.

أمّا ما هو المقصود من عبارة: ﴿رَحْمَةً مِنْ عِنْدنا﴾ فقد ذكر المفسّرون تفاسير مختلفة، فقال بعضهم: إنّها إشارة إلى مقام النبوة، والبعض الآخر اعتبرها إشارة للعمر الطويل، ولكن يحتمل أن يكون المقصود هو الاستعداد الكبير والروح الواسعة، وسعة الصدر التي وهبها الله تعالى لهذا الرجل كي يكون قادرا على استقبال العلم الإلهي[1].

في هذه الأثناء قال موسى للرجل العالم باستفهام وبأدب كبير:

(١) - المصدر السابق، ج٩، ص:٣١٥- ٣١٦.

﴿قالَ لَهُ مُوسى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْداً﴾. نستفيد من عبارة «رشدا» أنّ العلم ليس هدفا، بل هو وسيلة للعثور على طريق الخير والهداية والصلاح، وأنّ هذا العلم يجب أن يتعلّم، وأن يفتخر به.

في معرض الجواب نرى أنّ الرجل العالم عليه السلام قالَ: ﴿إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً﴾. ثمّ بيّن سبب ذلك مباشرة وقال: ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلى ما لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْراً﴾. وكما سنرى فيما بعد، فإنّ هذا الرجل العالم كان يحيط بأبواب من العلوم التي تخص أسرار وبواطن الأحداث، في حين أنّ موسى عليه السلام لم يكن مأمورا بمعرفة البواطن، وبالتالي لم يكن يعرف عنها الكثير، وفي مثل هذه الموارد يحدث كثيرا أن يكون ظاهر الحوادث يختلف تمام الاختلاف عن باطنها، فقد يكون الظاهر قبيحا أو غير هادف في حين أنّ الباطن مفيد ومقدّس وهادف لأقصى غاية. في مثل هذه الحالة يفقد الشخص الذي ينظر إلى الظاهر صبره وتماسكه فيقوم بالاعتراض وحتى بالتشاجر.

ولكن الأستاذ العالم والخبير بالأسرار بقي ينظر إلى بواطن الأعمال، واستمر بعمله بهدوء، ولم يعر أي أهمية إلى اعتراضات موسى وصيحاته، بل كان في انتظار الفرصة المناسبة ليكشف عن حقيقة الأمر، إلّا أنّ التلميذ كان مستمرا في الإلحاح، ولكنّه ندم حين توضحت وانكشفت له الأسرار.

قد يكون موسى عليه السلام اضطرب عند ما سمع هذا الكلام وخشي أن يحرم من فيض هذا العالم الكبير، لذا فقد تعهد بأن يصبر على جميع الحوادث وقال: ﴿قالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شاءَ اللهُ صابِراً ولا أَعْصِي لَكَ أَمْراً﴾.

مرّة أخرى كشف موسى عليه السلام عن قمة أدبه في هذه العبارة، فقد اعتمد على خالقه حيث لم يقل للرجل العالم: إنّي صابر، بل قال: إن شاء الله ستجدني صابرا.

ولأنّ الصبر على حوادث غريبة وسيئة في الظاهر والتي لا يعرف الإنسان أسرارها، ليس بالأمر الهيّن، لذا فقد طلب الرجل العالم من موسى عليه السلام أن يتعهد له مرّة أخرى، وحذّره: ﴿قالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْراً﴾. وقد أعطى موسى العهد مجددا وانطلق مع العالم الأستاذ[1].

إن العالم عليه السلام عند ما اشترط على موسى هذا الشرط، فإنه كان يشير إلي أن على العلماء أن يضبطوا أمرهم مع المتعلم منذ البداية، على أساس أن العالم هو الذي يحدد المنهج.

فلننظر ما حدث؛ قالَ له الخضر: ﴿فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْراً﴾ فَانْطَلَقا يمشيان على ساحل البحر فمرت

(١) - المصدر السابق، ج٩، ص:٣١٧- ٣١٨.

بهم سفينة فكلموهم أن يحملوهم فعرفوا الخضر، فقال أرباب السفينة: نحمل هؤلاء الثلاثة، فإنهم قوم صالحون فحملوهم، فلما جنحت السفينة في البحر، قام الخضر عليه السلام إلى جوانب السفينة فكسرها وحشاها بالخرق والطين، فغضب موسى عليه السلام غضبا شديدا وقال للخضر عليه السلام: ﴿أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً إِمْراً﴾ فقال له الخضر عليه السلام: ﴿أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً﴾، قال موسى: ﴿لا تُؤاخِذْنِي بِما نَسِيتُ ولا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْراً﴾. فخرجوا من السفينة فنظر الخضر عليه السلام إلى غلام يلعب بين الصبيان حسن الوجه كأنه قطعة قمر وفي أذنيه درتان، فتأمله الخضر عليه السلام، ثم أخذه فقتله، فوثب موسى على الخضر عليه السلام وجلد به الأرض: ﴿فقال أَقَتَلْتَ نَفْساً زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً نُكْراً﴾، فقال الخضر عليه السلام: ﴿أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً قال موسى إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَها فَلا تُصاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْراً فَانْطَلَقا حَتَّى﴾ قال ﴿إِذا أَتَيا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَما أَهْلَها﴾، وكان وقت العشي والقرية تسمى الناصرة وإليها ينسب النصارى ولم يضيفوا أحدا قط، ولم يطعموا غريبا، فاستطعموهم فلم يطعموهم، ولم يضيفوهم، فنظر الخضر عليه السلام إلى حائط قد زال يريد أن يتهاوى ويتهدم، فوضع الخضر عليه السلام يده عليه وقال: قم بإذن الله فقام، فقال موسى عليه السلام: لم ينبغ أن تضم الجدار حتى يطعمونا

ويأوونا، وهو قوله عز وجل: ﴿لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ فقال له الخضر عليه السلام: ﴿هذا فِرَاقُ بَيْنِي وبَيْنِك﴾[1].

جاء في الدر المنثور: سأل موسى ربه فقال رب أي عبادك أحب إليك، قال الذي يذكرني ولا ينساني، قال فأي عبادك أقضى، قال الذي يقضي بالحق ولا يتبع الهوى، قال فأي عبادك أعلم، قال الذي يبتغي علم الناس إلى علمه عسى أن يصيب كلمة تهديه إلى هدى أو ترده عن ردى، قال وقد كان حدث موسى نفسه أنه ليس أحد أعلم منه، قال رب فهل أحد أعلم منى قال نعم قال فأين هو قيل له عند الصخرة التي عندها العين، فخرج موسى يطلبه حتى كان ما ذكر الله، وانتهى موسى إليه عند الصخرة، فسلم كل واحد منهما على صاحبه، فقال له موسى: إني أريد أن تصحبني، قال: إنك لن تطيق صحبتي، قال: بلى، قال: فإن صحبتني فلا تسألني عن شيء، حتى أحدث لك منه ذكرا، فسار به في البحر حتى انتهى إلى مجمع البحرين، وليس في البحر مكان أكثر ماء منه، قال: وبعث الله الخطاف فجعل يستقى منه بمنقاره، فقال لموسى كم ترى هذا الخطاف رزأ بمنقاره من الماء، قال: ما أقل ما رزأ، قال فإن علمي وعلمك في علم الله كقدر ما استقى هذا الخطاف من هذا الماء، وذكر تمام الحديث في خرق السفينة، وقتل الغلام، وإصلاح الجدار، فكان قول موسى في الجدار لنفسه شيئا من

(١) - تفسير نور الثقلين، ج٣، ص: ٢٨٢- ٢٨٣.

الدنيا، وكان قوله في السفينة وفي الغلام لله عزَّ وجل [١].

ثم أن الرجل العالم ﴿قالَ: هذا فِراقُ بَيْنِي وبَيْنِكَ. سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ ما لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْراً﴾.

كانت هذه لحظة فاصلة، فلم يعد لموسى من عذر، ولم يعد للصحبة بينه وبين الرجل مجال، وإلى هنا كان موسى أمام مفاجآت متوالية لا يعلم لها سرا، وموقفنا منها كموقف موسى، بل نحن لا نعرف من هو هذا الذي يتصرف تلك التصرفات العجيبة، فلم ينبئنا القرآن باسمه، تكملة للجو الغامض الذي يحيط بنا، وما قيمة الاسم هنا؟ إنما يراد به أن يمثل الحكمة الإلهية العليا، التي لا ترتب النتائج القريبة على المقدمات المنظورة، بل تهدف إلى أغراض بعيدة لا تراها العين المحدودة، فعدم ذكر اسمه يتفق مع الشخصية المعنوية التي يمثلها. وإن القوى الغيبية لتتحكم في القصة منذ نشأتها؛ فها هو ذا موسى يريد أن يلقى هذا الرجل الموعود، فيمضي في طريقه ولكن فتاه ينسى غداءهما عند الصخرة، وكأنما نسيه ليعودا. فيجد هذا الرجل هناك. وكان لقاؤه يفوتهما لو سارا في وجهتهما، ولو لم تردهما الأقدار إلى الصخرة كرة أخرى ... كل الجو غامض مجهول، وكذلك اسم الرجل الغامض المجهول في سياق القرآن[٢].

---

(١) - الدر المنثور في تفسير المأثور، ج٤، ص: ٢٣٤.

(٢) - في ظلال القرآن، ج٤، ص:٢٢٨٠- ٢٢٨١.

ثم يأخذ السر في التجلي بعد أن أصبح الفراق بين موسى والخضر عليهما السلام أمرا حتميا، وكان من اللازم أن يقوم الأستاذ الإلهي بتوضيح أسرار أعماله التي لم يستطع موسى أن يصبر عليها، وفي الواقع فإنّ استفادة موسى من صحبته تتمثل في معرفة أسرار هذه الحوادث الثلاثة العجيبة، والتي يمكن أن تكون مفتاحا للعديد من المسائل، وجوابا لكثير من الأسئلة. ففي البداية ذكر قصّة السفينة وقال: ﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْباً﴾.

وبهذا الترتيب كان ثمّة هدف خيّر وراء ثقب السفينة الذي بدأ في حينه عملا مشينا سيئا، والهدف هو نجاتهم من قبضة ملك غاصب، وكان هذا الملك يأخذ السفن من أصحابها عنوة وبالقوة، ويترك السفينة المعيبة ويصرف النظر عنها، إذا خلاصة المقصود في الحادثة الأولى هو حفظ مصالح مجموعة من المساكين.

وكلمة «**وراء**» لا تعني هنا الجانب المكاني، وإنّما هي كناية عن الخطر المحيط بهم (خطر الملك) بدون أن يعلموا به، وبما أنّ الإنسان لا يحيط بالحوادث التي سوف تصيبه لاحقا، لذا استخدمت الآية التعبير الآنف الذكر.

ويفيد استخدام كلمة (مسكين) أنّ «**المسكين**» ليس هو الشخص

الذي لا يملك شيئا مطلقا، بل هي وصف يطلق على الأشخاص الذين يملكون أموالا وثروة لكنّها لا تفي بحاجاتهم. ويحتمل أيضا أن يكون السبب في إطلاق وصف (المساكين) عليهم ليس بسبب الفقر المالي، بل بسبب افتقارهم للقوّة والقدرة، وهذا التعبير يستخدم في لغة العرب، كما وأنّه يتلاءم مع الجذور الأصلية لمعنى مسكين لغويا، والذي يعني السكون والضعف.

في نهج البلاغة نقرأ قول أمير المؤمنين عليه السلام: **«مسكين ابن آدم .. تؤلمه البقة، وتقتله الشرقة، وتنتنه العرقة»** [1].

بعد ذلك ينتقل العالم إلى بيان سر الحادثة الثّانية التي قتل فيها الفتى فيقول: ﴿وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَاناً وَكُفْراً﴾.

تحتمل مجموعة من المفسّرين أنّ المقصود من الآية ليس ما يتبيّن من ظاهرها من أنّ الفتى الكافر والعاصي قد يكون سببا في انحراف أبويه، وإنّما المقصود أنّه بسبب من طغيانه وكفره يؤذي أبويه كثيرا، ولكن التّفسير الأوّل أقرب للصحة، في كل الأحوال، فإنّ الرجل العالم قام بقتل هذا الفتى، واعتبر سبب ذلك ما سوف يقع للأب والأم المؤمنين في حال بقاء الابن على قيد الحياة.

---

(١) - نهج البلاغة، الكلمات القصار الجملة رقم ٤١٩.

ثمّ تحكي الآيات على لسان العالم قوله: ﴿فَأَرَدْنا أَنْ يُبْدِلَهُما رَبُّهُما خَيْراً مِنْهُ زَكاةً وأَقْرَبَ رُحْماً﴾. ففي روايات عديدة نقرأ: **«أبدلهما الله به جارية ولدت سبعين نبيّا»** [1].

في آخر آية من الآيات التي نبحثها، كشف الرجل العالم عن السر الثّالث الذي دعاه إلى بناء الجدار فقال: ﴿وأَمَّا الْجِدارُ فَكانَ لِغُلامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وكانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُما وكانَ أَبُوهُما صالِحاً. فَأَرادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغا أَشُدَّهُما ويَسْتَخْرِجا كَنزَهُما. رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ﴾. وأنا كنت مأمورا ببناء هذا الجدار بسبب جميل وإحسان أبوي هذين اليتيمين، كي لا يسقط وينكشف الكنز ويكون معرّضا للخطر [2].

قيل لم يكن ذلك الكنز بذهب ولا فضة، ولكن كان لوحا من ذهب مكتوب فيه: عجب لمن أيقن بالموت كيف يفرح، عجب لمن أيقن بالقدر كيف يحزن، عجب لمن أيقن أن البعث حق كيف يظلم، عجب لمن يرى الدنيا وتصرف أهلها حالا بعد حال كيف يطمئن إليها.

وكان أبوهما صالحا، وكان بينهما وبين هذا الأب الصالح سبعون أبا، فحفظهما الله بصلاحه، ثم قال: ﴿فَأَرادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغا أَشُدَّهُما ويَسْتَخْرِجا كَنزَهُما﴾ ثم إن الخضر عليه السلام تبرأ من الإبانة في آخر القصص، ونسب الإرادة كلها إلى الله تعالى، ذكره في ذلك لأنه لم يكن بقي شيء مما

(١) - نور الثقلين، ج ٣، ص ٢٨٦- ٢٨٧.

(٢) - راجع: الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج٩، ص: ٣٢٧- ٣٣٠.

فعله فيخبر به بعد ويصير موسى عليه السلام به مخبرا ومصغيا إلى كلامه تابعا له، فتجرد من الإبانة والإرادة تجرد العبد المخلص، ثم صار متنصلا مما أتاه من نسبة الإبانة في أول القصة، ومن ادعائه الاشتراك في ثاني القصة، فقال: ﴿رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وما فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذلكَ تَأْوِيلُ ما لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْراً﴾[1]. وفي خاتمة الحديث، ولأجل أن تنتفي أي شبهة محتملة، أو شك لدى موسى عليه السلام، ولكي يكون على يقين بأنّ هذه الأعمال كانت طبقا لمخطط وتوجيه أعلى خاص، قال العالم: ﴿وما فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي﴾ بل بأمر من الله، وذلك سر ما لم يستطع موسى عليه السلام صبرا، إذ قال: ﴿ذلكَ تَأْوِيلُ ما لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْراً﴾.

(١) - البرهان في تفسير القرآن، ج٣، ص: ٦٤٧.

هل كانت مهمّة الخضر في إطار النظام التشريعي أم التكويني!؟

إنّ هذه الحوادث الثّلاث شغلت عقول العلماء الكبار، وأثارت بينهم الكثير من الكلام والاستفهام!.

والسؤال الأوّل هو: هل يمكن إتلاف جزء من أموال شخص بدون إجازته بذريعة أنّ هناك غاصبا يريد أن يصادرها؟ وهل يمكن معاقبة فتى بذريعة الأعمال التي سيقوم بها في المستقبل؟ ثمّ هل هناك ضرورة للعمل المجاني بهدف الحفاظ على أموال شخص معين؟

لقد رأينا في سياق القصّة القرآنية أنّ موسى اعترض على الرجل العالم، ولكنّه بعد أن استمع للتوضيحات وأحاط ببواطن الأمور عاد واقتنع. أمّا نحن فأمامنا طريقان للإجابة على الأسئلة، نعرضها بالتفصيل الآتي:

الطريق الأوّل: أن نطابق الحوادث وتصرفات الرجل العالم مع الموازين الفقهية، وقوانين الشرع، وقد قامت مجموعة من المفسّرين بسلوك هذا الطريق.

فالحادثة الأولى اعتبروها منطبقة مع قانون (الأهم والمهم)، وقالوا بأنّ حفظ مجموع السفينة عمل أهم حتما من الضرر الجزئي الذي لحقها بالخرق، وبعبارة أخرى، فإنّ الخضر قام هنا (بدفع الأفسد بالفاسد) خاصّة وأنّه كان يمكن تقدير الرضا الباطني لأهل السفينة

فيما إذا علموا بهذه الحادثة، (أي أنّ الخضر قد حصل من وجهة الأحكام والقواعد الشرعية على إذن الفحوى).

وفيما يتعلق بالغلام فقد أصرّ المفسّرون ممن سلك هذا الطريق، على أنّ الفتى كان بالغا وأنّه كان مرتدا أو مفسدا، وبسبب أعماله الفعلية فإنّه من الجائز أن يقتل. وأمّا حديث الخضر عن جرائم الغلام المستقبلية، فإنّه بذلك أراد أن يقول بأن جرائم هذا الغلام لا تقتصر على إفساده الراهن وجرائمه الحالية، بل سيقوم بالمستقبل بجرائم أكبر، لذا فإنّ قتله طبقا للموازين الشرعية، وبسبب ما اقترفه من جرائم فعلية، يكون جائزا.

أمّا ما يخص الحادثة الثّالثة، فلا أحد يستطيع أن يعترض على الأشخاص فيما لو قاموا بالتضحية والإيثار من أجل الآخرين، ومن أجل أن لا تضيع أموالهم دون أن يتقاضوا أجرا على أعمالهم، وهو بالضبط ما قام به الخضر، وقد لا تصل هذه الأفعال إلى حدّ الوجوب، إلّا أنّها تعتبر- حتما- من السلوك الحسن، بل قد يقال من الوجهة الفقهية أنّ الإيثار والتضحية في بعض الموارد من الأمور الواجبة، مثل أن تكون أموال كثيرة لطفل يتيم معرضة للتلف، ويمكن المحافظة عليها بجهد قليل فلا يستبعد وجوب بذل الجهد.

الطريق الثّاني: تتمّ فيه مناقشة بعض عناصر الاستدلال الفقهية

التي وردت في الطريق الأوّل، فإذا كانت التوضيحات الآنفة مقنعة فيما يخص الكنز والحائط، إلّا أنّها في قضية قتل الغلام لا تتلاءم مع ظاهر الآية، الذي اعتبر علّة قتل الغلام هو ما سيقوم به من أعمال في المستقبل، وليس أعماله الفعلية.

أمّا الدليل الوارد حول خرق السفينة، فهو أيضا لا يخلو من تأمل فهل نستطيع مثلا- ومن الوجهة الفقهية- أن نتلف جزءا من أموال أو بيت شخص معين بدون علمه لإنقاذها من خطر ما، حتى لو علمنا وتيقنا بأنّه سيتمّ غصب تلك الأموال في المستقبل... ترى هل يسمح الفقهاء بمثل هذا الحكم؟! وعلى هذا الأساس يجب علينا أن نسلك طريقا آخر:

إنّ في هذا العالم ثمّة نظامان هما: **«النظام التكويني، والنظام التشريعي»**، وبالرغم من أنّ هذين النظامين متناسقان فيما بينهما في الأصول الكلية، ولكنهما قد ينفصلان ويفترقان في الجزئيات، على سبيل المثال، يقوم الله سبحانه وتعالى ومن أجل اختبار العباد، بابتلائهم بالخوف ونقص في الأموال والثمرات وموت الأعزّة وفقدانهم، حتى يتبيّن الصابر من غيره تجاه هذه الحوادث والبلاءات.

والسؤال هنا هو: هل يستطيع أي فقيه أو حتى نبي أن يقوم بهذا العمل، أي ابتلاء العباد بنقص الأموال والثمرات وفقدان الأعزة، وفقدان الأمن والاستقرار بهدف اختبار الناس وابتلائهم؟

نرى أنّ الله سبحانه وتعالى يقوم بتحذير وتربية بعض أنبيائه وعباده الصالحين، وذلك بابتلائهم بمصائب بسبب تركهم للأولى، مثل ما ابتلى به يعقوب عليه السلام بسبب قلّة توجهه إلى المساكين، أو ما ابتلى به يونس عليه السلام بسبب تركه الأولى من بعض الأمور ولو لفترة قصيرة ... فهل يا ترى يحق لأحد أن يقوم بهذه الأعمال بعنوان الجزاء والعقاب لهؤلاء الرسل الكرام والعباد الصالحين؟

ونرى أنّ الله سبحانه وتعالى يقوم في بعض الأحيان، بسلب النعمة من الإنسان بسبب عدم شكره، كأن تغرق أمواله في البحر- مثلا- يخسر هذه الأموال، أو يصاب بالمرض بسبب عدم شكره لربّه على نعمة السلامة ...

والسؤال هنا: هل يستطيع أحد من الناحية الفقهية والتشريعية أن يسلب النعمة من الآخرين، أو ينزل الضرر بسلامتهم وصحتهم بسبب عدم شكرهم وبدعوى ابتلائهم؟

إنّ أمثال هذه الأمور كثيرة للغاية، وهي تظهر- بشكل عام- أنّ عالم الوجود، وخصوصا خلق الإنسان، قد قام على النظام الأحسن، حيث وضع الله تعالى مجموعة من القوانين والمقررات التكوينية حتى يسلك الإنسان طريق التكامل، وعند ما يتخلف عنها فسيصاب بردود فعل مختلفة.

ولكنّا من وجهة قوانين الشرع وضوابط الأحكام لا نستطيع أن نصنّف الأمور في إطار هذه القوانين التكوينية، فعلى سبيل المثال نرى أنّ الطبيب يستطيع أن يقطع إصبع شخص معين بحجّة عدم سراية السم إلى قلبه، ولكن هل يستطيع أي شخص أن يقطع إصبع شخص آخر بحجّة تربيته على الصبر أو عقابا له على كفرانه للنعم؟ (بالطبع الخالق يستطيع القيام بذلك حتما لأنّه يلائم النظام الأحسن).

والآن بعد أن ثبت وتوضح أنّ في العالم نظامان (تكويني وتشريعي)، وأنّ الله هو الحاكم والمسيطر على هذين النظامين، لذا فلا مانع في أن يأمر تعالى مجموعة بأن تطبّق النظام التشريعي، بينما يأمر مجموعة من الملائكة أو بعض البشر (كالخضر مثلا) بأن يطبقوا النظام التكويني.

ومن وجهة النظام التكويني لا يوجد أي مانع في أن يبتلي الله طفلا غير بالغ بحادثة معينة، ثمّ يموت ذلك الطفل بسبب هذه الحادثة، وذلك لعلم الله تعالى بأنّ أخطارا كبيرة كامنة لهذا الطفل في المستقبل، كما أنّ وجود مثل هؤلاء الأشخاص وبقاءهم يتمّ لمصلحة معينة كالامتحان والابتلاء وغير ذلك.

وأيضا لا مانع في أن يبتليني الله اليوم بمرض صعب يقعدني الفراش لعلمه تعالى بأنّ خروجي من البيت لو تمّ فسأتعرض لحادثة خطيرة لا أستحقها، لذا فهو تعالى يمنعني منها.

بعبارة أخرى: إنّ مجموعة من أوليائه وعباده مكلّفون في هذا العالم بالبواطن، بينما المجموعة الأخرى مكلّفون بالظواهر، والمكلّفون بالبواطن لهم ضوابط وأصول وبرامج خاصّة بهم، مثلما للمكلّفين بالظواهر ضوابطهم وأصولهم الخاصّة بهم أيضا.

صحيح أنّ الخط العام لهذين البرنامجين يوصل الإنسان إلى الكمال، وصحيح أنّ البرنامجين متناسقان من حيث القواعد الكلية، إلّا أنّهما يفترقان في التفاصيل والجزئيات كما لاحظنا ذلك في الأمثلة.

بالطبع لا يستطيع أحد أن يعمل كما يحلو له ضمن هذين الخطين، بل يجب أن يحصل على إجازة المالك القادر الحكيم الخالق جلّ وعلا، لذا رأينا الخضر (العالم الكبير) يوضح هذه الحقيقة بصراحة قائلا، (ما فعلته عن أمري) بل إنّي خطوت الخطوات وفقا للبرنامج الإلهي والضوابط التي كانت موضوعة لي، وهكذا سيزول التعارض والتضاد وتنتفي الأسئلة والمشكلات المثارة حول مواقف الخضر في الحوادث الثلاث.

وسبب عدم تحمّل موسى عليه السلام لأعمال الخضر يعود إلى مهمّة موسى التي كانت تختلف عن مهمّة الخضر في العالم، لذا فقد كان موسى عليه السلام يبادر إلى الاعتراض على مواقف الخضر المخالفة لضوابط الشريعة، بينما كان الخضر مستمرا في طريقه ببرودة أعصاب،

لأنّ وظيفة كل من هذين المبعوثين الإلهيين تختلف عن وظيفة الآخر ودوره المرسوم له إلهيا، لذلك لم يستطيعا العيش سوية، لذا قال الخضر لموسى عليه السلام: ﴿هذا فِراقُ بَيْنِي وبَيْنِكَ﴾[1].

القصة في مصادر اليهود

في بعض كتب علماء اليهود التي تمّ تدوينها في القرن الحادي عشر الميلادي قصّة تشبه إلى حد كبير حادثة موسى عليه السلام وعالم زمانه (الخضر)، بالرغم من أنّها تذكر أنّ أبطال تلك القصّة هما (إلياس) و(يوشع بن لاوي) وهما من مفسّري (التلمود) في القرن الثّالث الميلادي، وتختلف من خلال عدّة أمور عن قصّة موسى والخضر، والقصة هذه هي التالي:

يطلب يوشع من الله أن يلقى إلياس، وبمجردّ أن يستجاب دعاؤه ويحظى بلقاء إلياس فإنّه يرجوه أن يطلعه على بعض الأسرار، فيجيبه إلياس: إنّك لا طاقة لك على تحمّل ذلك، إلّا أن يوشع يصّر ويلحّ في طلبه فيستجيب له إلياس مشترطا عليه أن لا يسأل عن أيّ شيء يراه، وإذا تخلّف يوشع عن هذا الشرط فإنّ إلياس حرّ في الانفصال عنه وتركه، وعلى أساس هذا الاتّفاق يترافق يوشع وإلياس في السفر.

(١) - الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج٩، ص: ٣٣٠- ٣٣٤.

وأثناء سفرهما يدخلان إلى بيت فيستقبلهما صاحب البيت أحرّ استقبال ويكرم وفادتهما، وكان لأهل ذلك البيت بقرة هي كلّ ما يملكون من حطام الدنيا حيث كانوا يوفّرون لأنفسهم لقمة العيش من بيع لبنها، فيأمر إلياس صاحب البيت أن يذبح تلك البقرة، ويستولي على يوشع العجب والاستغراب من هذا التصّرف، ويدفعه ذلك لأن يسأله عن المبرّر لهذا الفعل، فيذكّره إلياس بما اتّفقا عليه ويهددّه بمفارقته له فيصمت يوشع ولا ينبس بكلمة.

ومن هناك يواصلان سفرهما إلى قرية أخرى فيدخلان إلى بيت شخص ثريّ، وينهض إلياس إلى جدار في ذلك البيت يشرف على السقوط فيرمّمه ويقيمه، وفي قرية أخرى يواجهان عددا من سكان تلك القرية مجتمعين في مكان معيّن ولا يعيرون هذين الشخصين بالا ولا يواجهونهما باحترام. فيقوم إلياس بالدعاء لهم أن يصلوا جميعا إلى الرئاسة، وفي قرية رابعة يواجههما سكّانها باحترام فائق فيدعو لهم إلياس بأن يصل شخص واحد منهم فحسب إلى الرئاسة، وبالتالي فإنّ يوشع بن لاوي لا يطيق الصبر فيسأل عن الوقائع الأربع، ويجيبه إلياس: بأنّه في البيت الأوّل كانت زوجة ربّ الدار مريضة ولو أنّ تلك البقرة لم تذبح بعنوان الصدقة فإنّ تلك المرأة تموت، ويصاب صاحب الدار بخسارة أفدح من الخسارة التي تلحقه نتيجة لذبح البقرة، وفي

البيت الثّاني كان هناك كنز ينبغي الاحتفاظ به لطفل يتيم، وأمّا إنّه قد دعوت لأهل القرية الثّالثة بأن يصلوا إلى الرئاسة جميعا، فذلك لكي تضطرب أمورهم ويختلّ النظام عندهم، على العكس من أهل القرية الرّابعة فإنّهم إذا أسندوا زمام أمورهم إلى شخص واحد فإنّ أمورهم سوف تنتظم وتسير على ما يرام.

ويجب عدم التوهّم حيث نرى بأنّ القصتين هما قصة واحدة، بل إنّ غرضنا الإشارة إلى أنّ القصة التي يذكرها علماء اليهود يمكن أن تكون قصة مشابهة أو محرّفة لما حصل أصلا لموسى عليه السلام والخضر، وقد تغيرت بسبب طول الزمان وأصبحت على هذا الشكل[1].

(١) - راجع: الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج٩، ص: ٣٣٦- ٣٣٧.

هناك جملة دروس يمكن أن نستفيدها من القصّة:

أ: أهمية العثور على قائد عالم والاستفادة من علمه، بحيث رأينا أنّ نبيّاً من أولي العزم مثل موسى عليه السلام يسلك هذا الطريق الطويل، وقد بذل ما بذل لتحقيقه، وهذا درس لجميع الناس مهما كان علمهم وفي أي عمر كانوا.

ب: جوهرة العلم الإلهي تنبع من العبودية لله تعالى، كما قرأنا في الآيات أعلاه في قوله تعالى: ﴿عَبْداً مِنْ عِبادِنا عَلَّمْناهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْماً﴾.

ج: يجب تعلم العلم للعمل، كما يقول موسى عليه السلام لصاحبه: ﴿مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْداً﴾ أي علمني عملا يقربني من هدفي ومقصدي، فأنا لا أطلب العلم لنفسه، بل للوصول إلى الهدف.

د: يجب عدم الاستعجال في الأعمال، إذ أن العديد من الأمور تحتاج إلى الفرص المناسبة (الأمور مرهونة بأوقاتها) خاصّة في القضايا المهمّة، ولهذا السبب، فإنّ الرجل العالم قد ذكر سرّ أعماله لموسى في الفرصة المناسبة.

هـ: الظاهر والباطن من المسائل المهمّة الأخرى التي نتعلمها من القصة، إذ يجب علينا أن لا نصدر أحكاما سريعة تجاه الحوادث

التي تقع في مجرى حياتنا مما قد لا يعجبنا. فما أكثر الحوادث التي نكرهها، ولكن يتّضح بعد مدّة أنّ هذه الحوادث لم تكن سوى نوع من الألطاف الخفية الإلهية، والقرآن يصرّح بمضمون هذه الحقيقة في قوله تعالى: ﴿عَسى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وهُو خَيْرٌ لَكُمْ وعَسى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وهُو شَرٌّ لَكُمْ واللهُ يَعْلَمُ وأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾[1].

إنّ المستفاد من هذه القضية أن لا يصاب الإنسان باليأس عند ما تهجم عليه الحوادث، وفي هذا الصدد نقرأ في حديث طريف ينقله عبد الله بن المحدّث والفقيه المعروف زرارة بن أعين، ويقول فيه عبد الله: قال لي أبو عبد الله عليه السلام: **«اقرأ مني على والدك السلام، وقل له: إنّي إنّما أعيبك دفاعا منّي عنك، فإنّ الناس والعدو يسارعون إلى كلّ من قرّبناه وحمدنا مكانه لإدخال الأذى في من نحبه ونقرّبه، ويرمونه لمحبتنا له وقربه ودنوه منّا، ويرون إدخال الأذى عليه وقتله ويحمدون كل من عبناه نحن، فإنّما أعيبك لأنّك رجل اشتهرت منّا، وبميلك إلينا، وأنت في ذلك مذموم عند الناس غير محمود الأثر بمودّتك لنا ولميلك إلينا، فأحببت أن أعيبك ليحمدوا أمرك في الدين بعيبك ونقصك، ويكون بذلك منّا دافع شرّهم عنك. يقول الله عزّ وجلّ: ﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكانَتْ لِمَساكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ**

(١) - سورة البقرة: آية ٢١٦.

أَنْ أَعِيبَهَا وكانَ وَراءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْباً﴾ هذا التنزيل من عند الله، صالحة، لا والله ما عابها إلا لكي تسلم من الملك، ولا تعطب على يديه، ولقد كانت صالحة ليس للعيب فيها مساغ والحمد لله، فافهم المثل يرحمك الله، فإنّك والله أحبّ الناس إليّ، وأحبّ أصحاب أبي حياً وميتا، فإنّك أفضل سفن ذلك البحر القمقام الزاخر، وإن من ورائك ملكا ظلوما غصوبا يرقب عبور كل سفينة صالحة ترد بحر الهدى ليأخذها غصبا، ثمّ يغصبها وأهلها ورحمة الله عليك حياً ورحمته ورضوانه عليك ميتا» [1].

و: من دروس القصة الاعتراف بالحقائق واتخاذ المواقف المطابقة لها، فعندما تخلّف موسى ثلاث مرّات عن الوفاء بالتزامه لصاحبه العالم، عرف أنّه لا يستطيع الاستمرار معه في الصحبة، وبالرغم من أنّ فراق هذا الأستاذ كان أمرا صعبا على موسى عليه السلام، إلّا أنّه عليه السلام لم يكابر وأنصف العالم بإعطائه الحق، وفارقه عن إخلاص بعد أن حصل على حقائق عظمية وكنوز معنوية كبيرة من هذه الصحبة القصيرة.

يجب على الإنسان أن لا يستمر إلى آخر عمره في اختبار نفسه، بحيث تتحوّل حياته إلى مختبر للأمور المستقبلية التي قد لا تحصل

(١) - معجم رجال الحديث، ج ٧، ص ٢٢٦.

أبدا، إذ عليه عندما يختبر موضوعا ما عدّة مرّات، أن يلتزم العمل بنتائج الاختبار وأن يقتنع به.

ز: تأثير إيمان الآباء على الأبناء: لقد تحمّل الخضر مسؤولية حماية الأبناء في المقدار الذي كان يستطيعه، وذلك بسبب الأب الصالح الملتزم، بمعنى أنّ الابن يستطيع أن يسعد في ظل الإيمان وأمانة الأب والتزامه ، وإنّ نتيجة العمل الصالح الذي يلتزمه الأب تعود على الابن أيضا.

نقرأ في بعض الرّوايات أنّ ذلك الرجل الصالح لم يكن الأب المباشر لليتامى، بل هو من أجدادهم البعيدين جدا، (وهكذا يكون للعمل الصالح تأثيره)[1]. وإنّ من علامات صلاح هذا الأب هو ما تركه من الكنوز المعنوية، ومن الحكم لأبنائه.

ح: قصر العمر بسبب إيذاء الوالدين: عندما يطال الموت الابن بسبب ما يلحقه من أذى بوالديه في مستقبل حياته، وبسبب ما يرهقهما به من أذى وطغيان وكفر، قد يحرفهم به عن الطريق الإلهي، كما رأينا ذلك في القصّة التي بين أيدينا، فإنّ الرّوايات الإسلامية تربط بين قصر العمر وترك صلة الرحم (وبالأخص أذية الوالدين وعقوقهما). وينبغي هنا أن نستوعب الدرس على صعيد هذا الجانب من القصة،

(١) - تفسير نور الثقلين، ج ٣، ص ٢٨٩.

إذا كان الولد يقتل لما يلحقه بأبويه من ضرر وأذى في مستقبل حياته، ترى فما حال الذي يمارس الأذى فعلا بحق والديه ويرهقهما بالعقوق؟

ط: الناس أعداء ما جهلوا: فقد يحدث أن يقوم شخص بالإحسان إلينا، إلّا أنّنا نتصوره عدوّا لنا، لأنّنا لا نعرف بواطن الأمور، ونتسرع ونفقد الصبر، خصوصا إزاء الأحداث والأمور التي نجهلها ولا نحيط بأسبابها علما، من الطبيعي أن يفقد الإنسان صبره إزاء ما لا يحيط به علما من الأحداث والقضايا، إلّا أنّ الدرس المستفاد من القصّة هو أن لا نتسرع في إصدار الأحكام على مثل هذه القضايا حتى تكتمل لدينا الرؤية التي نحيط من خلالها بجوانب وزوايا الموضوع المختلفة.

ففي حديث عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، نقرأ قوله عليه السلام: **«الناس أعداء ما جهلوا»** [1]، لذا فإنّه كلّما يرتفع الوعي لدى الإنسان فإنّ تعامله يكون أكثر منطقيا، وبعبارة أخرى إنّ أساس الصبر هو الوعي.

نعم، لقد كان لانزعاج موسى عليه السلام ما يبرره، إذ كان يرى تجاوزا عن حدود الشرع في الأحداث التي وقعت على يد صاحبه، بحيث تعرض القسم الأعظم للشريعة إلى الخطر، ففي الحادثة الأولى:

(١) - نهج البلاغة- الحكمة رقم ٤٣٨.

تعرضت مصونية أموال الناس إلى الخطر، وفي الثّانية تعرضت أرواحهم إلى خطر، أمّا في الثّالثة: فكان اعتراضه ينصب على ضرورة التعامل المنطقي مع حقوق الناس، لذلك فقد اعترض ونسي عهده الذي قطعه لصاحبه العالم، ولكن ما إن اطّلع على بواطن الأمور هدأ وكفّ عن الاعتراض، وهذا الأمر يدل على أنّ عدم الاطلاع هو أمر مقلق بحدّ ذاته.

ي: أدب التلميذ والأستاذ: ثمّة ملاحظات لطيفة حول أدب التلميذ والأستاذ ظهرت في مقاطع الحديث بين موسى عليه السلام والرجل الربّاني العالم، فمن ذلك مثلا:

١- اعتبار موسى عليه السلام لنفسه تابعا للخضر قوله: ﴿أَتَّبِعُكَ﴾.

٢- لقد أعلن موسى عليه السلام هذا الإتباع على شكل استئذان فقال: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ﴾.

٣- إقراره عليه السلام بعلم أستاذه وبحاجته للتعلّم فقال: ﴿عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ﴾.

٤- وللتواضع فقد اعتبر علم أستاذه كثيرا، وهو يطلب جانبا من هذا العلم، فقال: ﴿مِمَّا﴾.

٥- يصف علم أستاذه بأنّه علم إلهي فيقول: ﴿عُلِّمْتَ﴾.

٦- يطلب من أستاذه الهداية والرشاد فقال عليه السلام: ﴿رُشْدًا﴾.

٧- يقول لأستاذه بشكل لطيف خفي، بأنّ الله قد تلطّف عليك وعلّمك،

فتلطّف أنت عليّ، وحيث قال عليه السلام: ﴿تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ﴾.

٨- إنّ جملة ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ﴾ تكشف حقيقة أن يكون التلميذ في طلب الأستاذ، وفي اتباعه، إذ ليس من وظيفة الأستاذ إتباع تلميذه إلّا في حالات وموارد خاصّة.

٩- برغم ما كان يتمتع موسى عليه السلام بمنصب كبير (حيث كان نبيّا من أولي العزم وصاحب رسالة وكتاب) إلّا أنّه تواضع، وهذا يعني أنّك ومهما كنت وفي أي مقام أصبحت، يجب عليك أن تتواضع في مقام طلب العلم والمعرفة.

١٠- إنّ موسى عليه السلام لم يذكر عبارة جازمة في معرض تعهده لأستاذه، بل قال: ﴿سَتَجِدُنِي إِنْ شاءَ اللهُ صابِراً﴾ وهذه الصيغة في التعبير مملوءة أدبا إزاء الخالق جلّ وعلا، واتجاه الأستاذ أيضا، حتى إذا تخلّف عنها لا يكون ثمّة نوع من هتك الحرمة إزاء الأستاذ.

ضروري أن نذكر في خاتمة هذا الحديث أنّ العالم الرباني قد استخدم إزاء موسى عليه السلام منتهى الحلم في مقام التعليم والتربية، فعندما كان موسى عليه السلام ينسى تعهده وتثور ثائرته ويعترض عليه، يجيبه الأستاذ بهدوء وروية، ولكن على شكل استفهام: ﴿أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً﴾[1].

(١) - الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج٩، ص: ٣٤٢- ٣٤٦.

الفصل الثاني

ذو القرنين الحاكم

- قصة (ذو القرنين)
- ذو القرنين الحاكم العادل
- لماذا سمي (ذو القرنين) بهذا الاسم؟
- أين يقع سد (ذو القرنين)؟
- يأجوج ومأجوج
- بناء السد
- قصة (ذو القرنين والخضر وماء الحياة)
- دروس تربوية

قصة (ذو القرنين):

وردت قصة ذي القرنين في القرآن الكريم في سورة الكهف حيث يقول تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا﴾ ﴿فَأَتْبَعَ سَبَبًا﴾ ﴿حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا﴾ ﴿قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُكْرًا﴾ ﴿وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَى وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا﴾ ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا﴾ ﴿حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَى قَوْمٍ لَمْ نَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سِتْرًا﴾ ﴿كَذَلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا﴾ ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا﴾ ﴿حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لاَ يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلاً﴾ ﴿قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا﴾ ﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ

بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا﴾ ﴿آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انفُخُوا حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا﴾ ﴿فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا﴾ ﴿قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾ ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا﴾[1].

(١) - سورة الكهف: الآيات ٨٣-٩٩.

ذو القرنين الحاكم العادل

﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا﴾[1].

ذكر المفسّرون كلاماً كثيراً حول شخصية ذي القرنين الواردة في القرآن الكريم، فمن هو؟ وعلى أي واحد من الشخصيات التاريخية المعروفة تنطبق أوصافه؟. ويمكن أن نرجع الآراء إلى ثلاث نظريات أساسية هي:

النظرية الأولى: يرى البعض أنّ **«ذو القرنين»** ليس سوى **«الإسكندر المقدوني»**، لذا فإنّهم يسمونه **«الإسكندر ذو القرنين»** ويعتقد هؤلاء بأنّه سيطر بعد وفاة أبيه على دول الروم والمغرب ومصر، وبنى مدينة الإسكندرية، ثمّ سيطر بعد ذلك على الشام وبيت المقدس، ثمّ ذهب من هناك إلى **«أرمينيا»**، وفتح العراق وبلاد فارس، ثمّ قصد الهند والصين، ومن هناك رجع إلى خراسان، وقد بنى مدنا كثيرة، ثمّ جاء إلى العراق ومرض في مدينة **«زور»** وتوفي فيها.

ويقول البعض: إنّه لم يعمّر أكثر من (٣٦) سنة، أمّا جسده فقد ذهبوا به إلى الإسكندرية ودفنوه هناك[2].

---

(١) - سورة الكهف: آية ٨٣.

(٢) - راجع: تفسير الفخر الرازي، والكامل لابن الأثير (المجلد الأوّل صفحة ٢٨٧). ويعتقد البعض أن أوّل من قال بهذه النظرية هو الشيخ ابن سينا في كتابه الشفاء.

النظرية الثّانية: يرى جمع من المؤرخين أنّ **«ذو القرنين»** كان أحد ملوك اليمن (كان ملوك اليمن يسمّون ب **«تبّع»** وجمع ذلك **«تبابعة»**) وقد دافع عن هذه النظرية **«الأصمعي»** في تأريخ العرب قبل الإسلام، و**«ابن هشام»** في تأريخه المعروف بسيرة ابن هشام، و**«أبو ريحان البيروني»** في كتاب **«الآثار الباقية»**. ويمكن لنا أن نلمح في شعر شعراء (الحميرية) وهم من أقوام اليمن، وبعضا من شعراء الجاهلية تفاخرا بكون **«ذو القرنين»** من قومهم[1]. وفقا لهذه النظرية يكون سد ذي القرنين هو سد **«مأرب»** المعروف.

النظرية الثّالثة: وهي أحدث النظريات في هذا المجال وردت عن المفكر الإسلامي المعروف (أبو الكلام آزاد) الذي شغل يوما منصب وزير الثقافة في الهند. وقد أورد رأيه في كتاب حققه في هذا المجال، وطبقا لهذه النظرية فإنّ ذا القرنين هو نفسه (كورش الكبير) الملك الأخميني[2].

عن الأصبغ بن نباتة، قال: قام ابن الكوّاء إلى الإمام علي عليه السلام وهو على المنبر، فقال: يا أمير المؤمنين، أخبرني عن ذي القرنين، أنبيا كان أم ملكا؟ وأخبرني عن قرنيه، أمن ذهب أم من فضة؟

(١) - تفسير الميزان، ج ١٣، ص ٤١٤.

(٢) - الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج٩، ص: ٣٦٢- ٣٦٣.

فقال له عليه السلام: **«لم يكن نبيا ولا ملكا ولم يكن قرناه من ذهب ولا فضة، ولكنه كان عبدا أحب الله فأحبه الله، ونصح لله فنصحه الله، وإنما سمي ذا القرنين لأنه دعا قومه إلى الله عزَّ وجل فضربوه على قرنه، فغاب عنهم حينا، ثم عاد إليهم، فضرب على قرنه الآخر، وفيكم مثله»**. يعني نفسه.

وعن أبي الحسن موسى بن جعفر عليه السلام قال: **«ملك ذو القرنين وهو ابن اثنتي عشرة سنة، ومكث في ملكه ثلاثين سنة»**[1].

وعن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: إن ذا القرنين كان عبدا صالحا جعله الله عزَّ وجل حجة على عباده، فدعا قومه إلى الله وأمرهم بتقواه، فضربوه على قرنه فغاب عنهم زمانا حتى قيل مات أو هلك، بأي واد سلك، ثم ظهر ورجع إلى قومه فضربوه على قرنه الآخر، وفيكم من هو على سنته، وأن الله عزَّ وجل مكّن لذي القرنين في الأرض، وجعل له من كل شيء سببا، وبلغ المغرب والمشرق، وإن الله عزَّ وجل سيجري سنته في القائم من ولدي، فيبلغه مشرق الأرض وغربها حتى لا يبقى ولا موضعا منها من سهل أو جبل وطأه ذو القرنين إلا وطأه، ويظهر الله له عز وجل كنوز الأرض ومعادنها، وينصره بالرعب، ويملأ الأرض به عدلا وقسطا كما ملئت جورا وظلما[2].

---

(١) - البرهان في تفسير القرآن، ج٣، ص: ٦٥٩.

(٢) - تفسير نور الثقلين، ج٣، ص: ٢٩٤- ٢٩٥.

لماذا سمي (ذو القرنين) بهذا الاسم؟

يعتقد البعض أن سبب التسمية تعود إلى وصوله للشرق والغرب، حيث يعبّر العرب عن ذلك بقرني الشمس، والبعض الآخر يرى بأنّه عاش قرنين أو أنّه حكم قرنين، وأمّا ما مقدار القرن فهناك آراء مختلفة في ذلك، والبعض الثّالث يقول: كان يوجد على طرفي رأسه بروز (قرن)، ولهذا السبب سمّي بذي القرنين، وأخيرا فإنّ البعض يعتقد بأنّ تاجه الخاص كان يحتوي على قرنين[1].

بالطبع هناك آراء أخرى في ذلك؛ فقد جاء مجمع البيان: **« وفي سبب تسميته بذي القرنين أقوال أخر (منها) أنه سمي به لأنه كانت له ضفيرتان. (ومنها) أنه كان على رأسه شبه القرنين تواريه العمامة. (ومنها) أنه بلغ قطري الأرض من المشرق والمغرب فسمي بذلك لاستيلائه على قرن الشمس من مغربها وقرنها من مطلعها. (ومنها) أنه رأى في منامه أنه دنى من الشمس حتى أخذ بقرنيها في شرقها وغربها فقص رؤياه على قومه فسموه ذا القرنين. (ومنها) أنه عاش عيش قرنين فانقرض في وقته قرنان من الناس وهو حي، (ومنها) أنه كان كريم الطرفين من أهل بيت الشرف من قبل أبيه وأمه، قال معاذ بن جبل كان من أبناء الروم واسمه الإسكندر وهو الذي بنى الإسكندرية»**[2].

(١) – الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج٩، ص: ٣٦٤.

(٢) – مجمع البيان في تفسير القرآن، ج٦، ص: ٧٥٦.

لكن لو لاحظنا بدقة آيات القرآن الكريم لاستفدنا أنّ ذا القرنين كانت له صفات مميزة هي:

لقد هيّأ الله جلّ وعلا له أسباب القوّة ومقدمات الانتصار، وجعلها تحت تصرفه وفي متناول يده.

لقد جهز ثلاثة جيوش مهمّة: الأوّل إلى الغرب والثّاني إلى الشرق والثّالث إلى المنطقة التي تضم المضيق الجبلي، وفي كل هذه الأسفار كان له تعامل خاص مع الأقوام المختلفة، حيث ورد تفصيل ذلك في الآيات السابقة، كان رجلا مؤمنا تتجلى فيه صفات التوحيد والعطف، ولم ينحرف عن طريق العدل، ولهذا السبب فقد شمله اللطف الإلهي الخاص، إذ كان ناصرا للمحسنين وعدوّا للظالمين، ولم يكن يرغب أو يطمع بمال الدنيا، وكان مؤمنا بالله وباليوم الآخر.

لقد صنع واحدا من أهم وأقوى السدود، السّد الذي استفاد لصنعه من الحديد والنحاس بدلا من الطابوق والحجارة. (وإذا كانت هناك مواد أخرى مستخدمة فيه، فهي لا تعتبر شيئا بالقياس إلى الحديد والنحاس)، أمّا هدفه من بنائه فكان مساعدة المستضعفين في قبال ظلم يأجوج ومأجوج.

كان شخصا مشهورا بين مجموعة من الناس، وذلك قبل نزول القرآن، لذا فإنّ قريشاً أو اليهود سألوا رسول الله ﷺ عنه، كما يصرح

بذلك الكتاب العزيز في قوله تعالى: ﴿يَسْئَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ﴾.

ويمكن القول أنه لا يمكن الاستفادة بشيء من صريح القرآن للدلالة على أنّه كان نبيّا، بالرغم من وجود تعابير تشعر بهذا المعنى ونقرأ في العديد من الرّوايات الإسلامية الواردة عن الرّسول ﷺ وأئمّة أهل البيت عليهم السلام أنّه: «لم يكن نبيّا بل عبدا صالحا»[1].

يقول المولى عز وجل حاكيا عن قصة هذا الحاكم العظيم: ﴿فَأَتْبَعَ سَبَبًا﴾ ﴿حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا﴾[2].

أي فاتّخذ طريقا وسلكه نحو الغرب حَتَّى إذا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ، أي وصل إلى المحل الذي يتراءى له فيه غروبها من سطح الأرض، ومعناه أنه انتهى إلى آخر أمكنة العمران من جهة المغرب. ﴿وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾، أي وجد الشمس تغيب عن ناظريه في عين كثيرة الحمأ أي الطّين الأسود المنتن، وقرئ: (في عين حامية) أي حارّة، فقد وجد الشمس تغرب هناك وإن كانت بالحقيقة لا تغرب في مرمى بصر ولكن ظلّها في الماء خيّل له ذلك، لأن الشمس في واقع الأمر لا تزايل الفلك، ولا تدخل في عين ماء يعيش قربها قوم ويقيمون آمنين من الاحتراق بحرارتها، بل هي لا تبارح مجاريها في

(١) – الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج٩، ص: ٣٦٥.

(٢) – سورة الكهف، الآيتان: ٨٥ –٨٦.

النظام الكونيّ، وإنما ذكر القرآن الكريم ما يتراءى للعالمين من شروق الشمس وغروبها بهذا الوصف الدقيق المعجز الرائع[1]. فلما بلغ ذو القرنين ذلك الموضع تراءى له كأن الشمس تغرب في عين كما أن من كان في البحر رآها كأنها تغرب في الماء، ومن كان في البر يراها كأنها تغرب في الأرض الملساء. والحاصل أن ذا القرنين لمّا بلغ ذلك الموضع رأى كأنّ الشمس تغيب في تلك العين، التي هي في الواقع ساحل المحيط الأطلسي، حيث وصل إلى هناك ﴿وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا﴾ أي في تلك البقعة من الأرض وجد أناسا... ﴿قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا﴾.

في هذا دلالة على أن القوم كانوا كفارا والمعنى إما أن تعذب بالقتل من أقام منهم على الشرك، وإما أن تأسرهم وتمسكهم بعد الأمر لتعلمهم الهدى وتستنقذهم من العمى، وقيل معناه وإما أن تعفو عنهم، واستدل من ذهب إلى أن ذا القرنين كان نبيا بهذا قال: لأن أمر الله تعالى لا يعلم إلا بالوحي والوحي لا يجوز إلا على الأنبياء وقيل: إن الله تعالى ألهمه ولم يوح إليه وقيل: إن كان ذو القرنين نبيا فإن الله تعالى قال له كما يقول للأنبياء إما بتكليم أو بوحي، وإن لم يكن نبيا فإن معنى قلنا ألهمنا لأن الإلهام ينوب عن الوحي. قال سبحانه: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى﴾ أي وألهمناها. قال قتادة فقضى ذو القرنين فيهم بقضاء الله تعالى وكان عالما

(١) - الجديد في تفسير القرآن المجيد، ج٤، ص: ٣٦٠.

بالسياسة: ﴿قالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ﴾ أي أشرك: ﴿فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ﴾ أي نقتله إذا لم يرجع عن الشرك: ﴿ثُمَّ يُرَدُّ إِلى رَبِّهِ﴾ بعد قتلي إياه: ﴿فَيُعَذِّبُهُ عَذاباً نُكْراً﴾، أي منكرا غير معهود، يعني في النار وهو أشد من القتل في الدنيا[1].

ثم تقول الآية: ﴿وأَمَّا مَنْ آمَنَ وعَمِلَ صالِحاً فَلَهُ جَزاءً الْحُسْنى. وسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنا يُسْراً﴾. أي أنّنا سنتعامل معه بالقول الحسن، فضلا عن أنّنا سنخفف عنه ولا نجعله يواجه المشاكل والصعاب، بالإضافة إلى أنّنا سوف لن نجبي منه ضرائب كثيرة.

والظاهر أنّ ذا القرنين أراد من ذلك أن الناس سينقسمون مقابل دعوتي إلى التوحيد والإيمان والنهي عن الظلم والفساد إلى مجموعتين، الأولى: هي المجموعة التي سترحب ببرنامجه الإلهي ودعوته للتوحيد والإيمان، وهذه ستجزى بالحسنى وستعيش حياة آمنة ومطمئنة. أمّا الثّانية: فستتخذ موقفا عدائيا من دعوة ذي القرنين، وتقف في الجبهة المناوئة، وتستمر في شركها وظلمها، وتواصل فسادها، وهي لذلك ستعاقب نتيجة موقفها هذا أشدّ العقاب.

وبمقارنة قوله: ﴿مَنْ ظَلَمَ﴾ وقوله: ﴿مَنْ آمَنَ وعَمِلَ صالِحاً﴾، يتبيّن لنا أنّ الظلم يعني هنا الشرك والعمل غير الصالح الذي يعدّ من ثمار شجرة الشرك المشؤومة.

وعندما انتهى «**ذو القرنين**» من سفره إلى الغرب توجه إلى الشرق،

(١) - مجمع البيان في تفسير القرآن، ج٦، ص: ٧٥٧.

حيث يقول القرآن في ذلك: ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَباً﴾، أي استخدم الوسائل والإمكانات التي كانت بحوزته.

﴿حَتَّى إِذا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ﴾. وهنا رأى أنّها: ﴿تَطْلُعُ عَلى قَوْمٍ لَمْ نَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِها سِتْراً﴾. وفي اللفظ كناية عن أنّ حياة هؤلاء الناس بدائية جدّا، ولا يملكون سوى القليل من الملابس التي لا تكفي لتغطية أبدانهم من الشمس. أمّا بعض المفسّرين فلم يستبعدوا افتقار هؤلاء الناس إلى المساكن التي تحميهم من الشمس.

وهناك احتمال آخر يطرحه البعض، ويرى أن يكون هؤلاء القوم في أرض صحراوية تفتقر للجبال والأشجار والملاجئ، وأن ليس في تلك الصحراء ما يمكّن هؤلاء القوم من حماية أنفسهم من الشمس من غطاء أو غير ذلك [1].

جاء في تفسير الجديد: أي أنهم عراة لا يتّقون أشعّتها (الشمس) بأيّ لباس، وليس في أرضهم أي جبل أو شجر أو بناء، لأنها أرض رخوة لا يثبت عليها بناء مضافا إلى أنهم لم يعرفوا بناء البيوت ولا وضع الثياب على الأجساد.

﴿كَذلِكَ وَقَدْ أَحَطْنا بِما لَدَيْهِ خُبْراً﴾: أي أن أمر ذي القرنين كما وصفناه في رفعة المكانة وبسطة الملك والسلطان النافذ على الشرق

(١) - الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج٩، ص: ٣٥١-٣٥٢.

والغرب، مضافا إلى إحاطتنا ومعرفتنا بما معه من جند كثير، وعدّة عديدة، وعلم غزير، ممّا لم يحط به غير اللطيف الخبير[1].

﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَباً. حَتَّى إِذا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِما قَوْماً لا يَكادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا. قالُوا: يا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ، فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجاً عَلى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا؟ قالَ: ما مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْماً. آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ. حَتَّى إِذا ساوى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قالَ: انْفُخُوا. حَتَّى إِذا جَعَلَهُ ناراً قالَ: آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْراً. فَمَا اسْطاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطاعُوا لَهُ نَقْباً. قالَ: هذا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي، فَإِذا جاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ، وكانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾.

تشير الآيات إلى أنّه وصل إلى منطقة جبلية، وهناك وجد أناسا (غير المجموعتين اللتين عثر عليهما في الشرق والغرب) كانوا على مستوى متدنٍ من المدنية، لأنّ الكلام أحد أوضح علائم التمدّن لدى البشر. لكن البعض احتمل أنّ جملة: ﴿لا يَكادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا﴾ لا تعني أنّهم لم يكونوا يعرفون اللغات، بل كانوا لا يفهمون محتوى الكلام، أي كانوا متخلفين فكريا.

في هذه الأثناء اغتنم هؤلاء القوم مجيء ذي القرنين، لأنّهم كانوا

(١) - الجديد في تفسير القرآن المجيد، ج٤، ص: ٣٦٢.

في عذاب شديد من قبل أعدائهم يأجوج ومأجوج[1]، فعرضوا عليه أن يقيم لهم سدا في وجه يأجوج ومأجوج الذين يهاجمونهم من وراء الحاجزين، ويغيرون عليهم من ذلك الممر، فيعيثون في أرضهم فسادا، ولا يقدرون على دفعهم وصدهم ... وذلك في مقابل خراج من المال يجمعونه له من بينهم.

وتبعا للمنهج الصالح الذي أعلنه ذلك الحاكم الصالح من مقاومة الفساد في الأرض، فقد رد عليهم عرضهم الذي عرضوه من المال والتطوع بإقامة السد، ورأى أن أيسر طريقة لإقامته هي ردم الممر بين الحاجزين الطبيعيين، فطلب إلى أولئك القوم المتخلفين أن يعينوه بقوتهم المادية والعضلية، حتى يقيم سدا يكون مانعا للقوم المفسدين من الاعتداء عليهم.

أين يقع سد ذي القرنين؟

بالرغم من محاولة البعض المطابقة بين سد ذي القرنين وبين جدار الصين الذي لا يزال موجودا، ويبلغ طوله مئات الكيلومترات، إلّا أنّ الواضح أنّ جدار الصين لا يدخل في بنائه الحديد ولا النحاس، ومضافا إلى ذلك لا يقع في مضيق جبلي ضيق، بل هو جدار مبني من مواد البناء العادية، ويبلغ طول مئات الكيلومترات، وما زال موجودا حتى الآن.

(١) - الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج٩، ص: ٣٦٨.

البعض يرى في سد ذي القرنين أنّه سد مأرب في اليمن، ولكن هذا السد برغم وقوعه في مضيق جبلي، إلّا أنّه أنشئ لمنع السيل ولتخزين المياه، ولم يدخل النحاس والحديد في بنائه.

ولكن بالاستناد إلى شهادة العلماء وأهل الخبرة، فإنّ السد يقع في أرض القوقاز، بين بحر الخزر (قزوين) والبحر الأسود، حيث توجد سلسلة جبلية كالجدار تفصل الشمال عن الجنوب، والمضيق الوحيد الذي يقع بين هذه الجبال الصخرية هو مضيق **«داريال»** المعروف، ويشاهد فيه جدار حديدي أثري حتى الآن، ولهذه المرجحات يعتقد الكثيرون أنّ سد **«ذو القرنين»** يقع في هذا المضيق، وأنّ المتبقي من مواصفات آثاره دليل مؤيّد لذلك.

الطريف في الأمر أنّه يوجد نهر على مقربة من ذلك المكان يسمى **«سائرس»** أي **«كورش»** إذ كان اليونان يسمون كورش ب (سائرس). والآثار الأرمينية القديمة كانت تطلق على هذا الجدار اسم **«بهاك كورائي»** والتي تعني **«مضيق كورش»** أو**«معبر كورش»** وهذا دليل آخر على أنّ كورش هو الذي بنى السد[1].

(١) - الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج٩، ص: ٣٦٩- ٣٧٠. وللمزيد من التفاصيل يمكن مراجعة كتاب «ذو القرنين أو كورش الكبير».

يأجوج ومأجوج

ذكر القرآن الكريم يأجوج ومأجوج في سورتين، إذ وردت المرّة الأولى في الآيات التي نبحثها، والثّانية في سورة الأنبياء، حيث يقول المولى سبحانه: ﴿حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ﴾[1].

يقول العلّامة الطباطبائي، في تفسير الميزان: ويستفاد منها أن «مأجوج» أو«جوج ومأجوج» أمة أو أمم عظيمة كانت قاطنة في أقاصي شمال آسيا من معمورة الأرض يومئذ، وأنهم كانوا أمما محاربة معروفة بالمغازي والغارات[2].

وجاء في وصف يأجوج ومأجوج، فروي أنهم من الترك ومن ولد يافث بن نوح، كانوا يفسدون في الأرض فضرب السد دونهم. وروي أنهم من غير ولد آدم. وفي عدة من الروايات أنهم قوم ولود لا يموت الواحد منهم من ذكر أو أنثى حتى يولد له ألف من الأولاد، وأنهم أكثر عددا من سائر البشر حتى عدوا في بعض الروايات تسعة أضعاف البشر، وروي أنهم من الشدة والبأس بحيث لا يمرون ببهيمة أو سبع أو إنسان إلا افترسوه وأكلوه، ولا على زرع أو شجر إلا رعوه، ولا على ماء نهر إلا شربوه ونشفوه، وروي أنهم أمّتان كل منهما أربع مائة ألف أمّة كل

(١) - سورة الأنبياء: آية ٩٦.

(٢) - الميزان في تفسير القرآن، ج١٣، ص: ٣٨٠.

أمّة لا يحصي عددهم إلا الله سبحانه. وروي أنهم طوائف ثلاث فطائفة كالأرز وهو شجر طوال، وطائفة يستوي طولهم وعرضهم: أربعة أذرع في أربعة أذرع، وطائفة وهم أشدهم، للواحد منهم أذنان يفترش بإحداهما ويلتحف بالأخرى، يستوفي إحداهما لابسا له وهي وبرة ظهرها وبطنها ويصيف في الأخرى وهي زغبة ظهرها وبطنها، وهم صلب، على أجسادهم من الشعر ما يواريها، وروي أن الواحد منهم شبر أو شبران أو ثلاثة، وروي أن الذين كانوا يقاتلونهم كانت وجوههم وجوه الكلاب؛ وما إلى ذلك من الروايات[1].

على أن الآيات القرآنية تؤيّد بوضوح أنّ هذين الاسمين هما لقبيلتين همجيتين كانتا تؤذيان سكان المناطق المحيطة بهم، وقد جاء في كتاب **«حزقيل»** من التوراة، الفصل الثامن والثلاثين والتاسع والثلاثين، وفي كتاب رؤيا **«يوحنا»** الفصل العشرين، ذكرا بعنوان **«كودك»** و**«ماكوك»** التي تعني بعد التعريب يأجوج ومأجوج.

والبعض يعتقد أنّ هاتين الكلمتين عبريتين، ولكنهما في الأصل انتقلتا من اليونانية إلى العبرية، إذ كانتا تلفظان في اليونانية ب **«كاك»** و**«ماكاك»** ثمّ انتقلتا على هذا الشكل إلى كافة اللغات الأوروبية.

---

(١) - الميزان في تفسير القرآن، ج١٣، ص:٣٧٢- ٣٧٣.

ثمّة أدلة تاريخية على أنّ منطقة شمال شرقي الأرض في نواحي **«منغوليا»** كانت في الأزمنة السابقة كثيفة السكان، إذ كان الناس يتكاثرون بسرعة، وبعد أن ازداد عددهم اتجهوا نحو الشرق أو الجنوب، وسيطروا على هذه الأراضي وسكنوا فيها تدريجيا.

وقد وردت مقاطع تاريخية مختلفة لحركة هؤلاء الأقوام وهجراتهم، وقد تمّت واحدة من هذه الهجمات في القرن الرابع الميلادي، بقيادة **«آتيلا»** وقد قضت هذه الهجمة على حضارة الإمبراطورية الرومانية.

وكان آخر مقطع تأريخي لهجومهم في القرن الثّاني عشر الميلادي بقيادة جنكيزخان، حيث هاجم شرق البلاد الإسلامية ودمّر العديد من المدن، وفي طليعتها مدينة بغداد حاضرة الخلافة العباسية. وفي عصر كورش في حوالي عام (٥٠٠) قبل الميلاد قامت هذه الأقوام بعدة هجمات، لكن موقف حكومة **«ماد وفارس»** إزاءهم أدّى إلى تغير الأوضاع واستتباب الهدوء في آسيا الغربية التي نجت من حملات هذه القبائل.

وبهذا يظهر أنّ يأجوج ومأجوج هم من هذه القبائل الوحشية، حيث طلب أهل القفقاز من **«كورش»** عند سفره إليهم أن ينقذهم من هجمات هذه القبائل، لذلك أقدم على تأسيس السد المعروف بسدّ ذي القرنين[١].

(١) - الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج٩، ص: ٣٧٠- ٣٧١.

بناء السد

نعود إلى متابعة قصة ذي القرنين حيث يقول: ﴿قالَ ما مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ ...﴾ أي أنه أجابهم قائلا: إن ما ملّكني إياه ربّي، وأقدرني عليه من المال والسلطان خَيْرٌ ممّا تبذلون لي من مالكم: ﴿فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ﴾ فساعدوني بقوة الرجال. فمعنى القوة قوة الأبدان، أو أن المراد آلات العمل وبعض لوازمه كالحديد والصفر، أو المراد كلاهما.

وتبعا للمنهج الصالح الذي أعلنه ذلك الحاكم الصالح من مقاومة الفساد في الأرض، فقد رد عليهم عرضهم الذي عرضوه من المال والتطوع بإقامة السد، ورأى أن أيسر طريقة لإقامته هي ردم الممر بين الحاجزين الطبيعيين، فطلب إلى أولئك القوم المتخلفين أن يعينوه بقوتهم المادية والعضلية: ﴿فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْماً﴾[1].

﴿آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ ...﴾ أعطوني قطع الحديد التي هيأتها لكم بالاقتدار الربّاني إذ وهب لي ذلك سبحانه من فضله وأعطاني إياه ... ثم مضى في العمل: ﴿حَتَّى إِذا ساوى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ﴾، الصدف: منقطع الجبل وجانبه، فقد عمل بين منقطع الجبلين وما زال يردم الحجارة والأتربة وينضّد الزّبر ويركّبها بعضها فوق بعض، ويشيّد ردما

(١) - في ظلال القرآن، ج٤، ص: ٢٢٩٢.

يقوم على قطع حديد متراكبة منظّمة يتخلّل صفوفها الفحم ثم قالَ ذو القرنين عليه السلام:

انْفُخُوا بالمنافخ التي صنعها لهذه الغاية من أجل إشعال النار وإضرامها في مختلف أجزاء الردم، فنفخوا: ﴿حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَارًا﴾ أي صيّر الحديد نارا ﴿قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا﴾. أعطوني النحاس الذي أعددته لأفرغه على الحديد الملتهب فيمتزج بعضه ببعض، ويتماسك فيصير جسما واحدا. وقيل قصد القطر الذي تطلي به الإبل التي يظهر فيها الجرب، طلبه ليريقه على الحديد فيزيد في اشتعال النار ويساعد على التحام الحديد لشدة الحرارة التي يولّدها عند احتراقه. وهكذا عقد بينهم هذا السد الحاجز: ﴿فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ﴾ أي ما قدروا على تجاوزه والصعود عليه لعلوّه وارتفاع بنائه ونعومة ملمسه: ﴿وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا﴾، ولا قدروا على ثقبه وتدميره لصلابته وثخنه، فقد قيل إن ارتفاعه كان خمسين ذراعا، وثخنه ثمانية اذرع، وقد قال صاحب الكشاف: قيل: بُعدُ ما بين السّدّين مائة فرسخ، يقصد طول السّد من طرفيه مما يلي الجبلين[1].

وقد استخدمت هذه الطريقة حديثا في تقوية الحديد، فوجد أن إضافة نسبة من النحاس إليه تضاعف مقاومته وصلابته، وكان هذا

(١) - الجديد في تفسير القرآن المجيد، ج٤، ص: ٣٦٣.

الذي هدى الله إليه ذا القرنين، وسجله في كتابه الخالد سبقا للعلم البشري الحديث بقرون لا يعلم عددها إلا الله.

وبذلك التحم الحاجزان، وأغلق الطريق على يأجوج ومأجوج: ﴿فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ﴾ ويتسوروه: ﴿ومَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا﴾ فينفذوا منه. وتعذر عليهم أن يهاجموا أولئك القوم الضعاف المتخلفين، فأمنوا واطمأنوا.

ونظر ذو القرنين إلى العمل الضخم الذي قام به، فلم يأخذه البطر والغرور، ولم تسكره نشوة القوة والعلم، ولكنه ذكر الله فشكره، ورد إليه العمل الصالح الذي وفقه إليه، وتبرأ من قوته إلى قوة الله، وفوض إليه الأمر، وأعلن ما يؤمن به من أن الجبال والحواجز والسدود ستدك قبل يوم القيامة، فتعود الأرض سطحا أجرد مستويا.

﴿قالَ: هذا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي، فَإِذا جاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ. وكانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾ ..

وبذلك تنتهي هذه الحلقة من سيرة ذي القرنين، النموذج الطيب للحاكم الصالح العادل، يمكنه الله في الأرض، وييسر له الأسباب فيجتاح الأرض شرقا وغربا، ولكنه لا يتجبر ولا يتكبر، ولا يطغى ولا يتبطر، ولا يتخذ من الفتوح وسيلة للغنم المادي، واستغلال الأفراد والجماعات والأوطان، ولا يعامل البلاد المفتوحة معاملة الرقيق، ولا

يسخّر أهلها في أغراضه وأطماعه ... إنما ينشر العدل في كل مكان يحل به، ويساعد المتخلفين، ويدرأ عنهم العدوان دون مقابل، ويستخدم القوة التي يسرها الله له في التعمير والإصلاح، ودفع العدوان وإحقاق الحق، ثم يُرجع كل خير يحققه الله على يديه إلى رحمة الله وفضل الله، ولا ينسى وهو في إبان سطوته قدرة الله وجبروته، وأنه راجع إلى الله[1].

وهكذا تمّ لذي القرنين ما أراده من إغلاق المنافذ التي كان ينفذ منها هذا الجيش البشري- يأجوج ومأجوج- ليفسدوا البلاد ويهلكوا العباد، وذلك انسجاما منه مع مسؤوليته الإيمانية في ما إرادة الله من تقوية الضعيف بقدرته.

لقد كان عمل ذي القرنين عظيما ومهما، وكان له وفقا لمنطق المستكبرين ونهجهم أن يتباهى به أو يمنّ به، إلّا أنّه قال بأدب كامل: ﴿هذا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي﴾؛ لأنّ أخلاقه كانت أخلاقا إلهية.

لقد أراد أن يقول: إذا كنت أملك العلم والمعرفة وأستطيع بواسطتهما أن أخطو خطوات مهمّة، فإنّ كل ذلك إنما كان من قبل الخالق جلّ وعلا، وإذا كنت أملك قابلية الكلام والحديث المؤثّر فذلك أيضا من الخالق جلّ وعلا. وإذا كانت مثل هذه الوسائل والأفكار في اختياري فإنّ ذلك من بركة الله ورحمة الخالق الواسعة.

---

(١) - في ظلال القرآن، ج٤، ص: ٢٢٩٣.

أراد ذو القرنين أن يقول: إنّني لا أملك شيئا من عندي كي أفتخر به، ولم أعمل عملا مهما كي أمنّ على عباد الله. ثمّ استطرد قائلا: لا تظنوا أنّ هذا السد سيكون أبديا وخالدا: ﴿فَإِذا جاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ. وكانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾.

لقد أشار ذو القرنين في كلامه هذا إلى قضية فناء الدنيا وتحطّم هيكل نظام الوجود فيها عند البعث، لكن بعض المفسّرين اعتبر الوعد الإلهي إشارة إلى التقدم العلمي للبشر والذي بواسطته لا يبقى معنى لسد غير قابل للاختراق والعبور، فالطائرات وما شابهها تستطيع أن تعبر جميع هذه الموانع، ولكن هذا التّفسير بعيد حسب الظاهر[1].

قصة (ذو القرنين والخضر وماء الحياة)[2]

جاء في تفسير نور الثقلين عن الأصبغ بن نباتة عن الإمام علي بن أبي طالب صلوات الله عليه:»... وكان ذو القرنين عبدا صالحا، كان من الله بمكان نصح الله فنصح له، وأحب الله فأحبه، وكان قد سبّب له في البلاد ومكّن له فيها، حتى ملك ما بين المشرق والمغرب، وكان له خليل من الملائكة يقال له رقائيل ينزل إليه فيحدثه ويناجيه، فبينا هو ذات يوم عنده إذ قال له ذو القرنين: يا رقائيل كيف عبادة أهل السماء

(١) - الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج٩، ص: ٢٥٦.

(٢) - راجع: تفسير نور الثقلين، ج٣، ص: ٢٩٨- ٣٠٤.

وأين هي من عبادة أهل الأرض؟ فقال:

أما عبادة أهل السماء ما في السموات موضع قدم إلا وعليه ملك قائم لا يقعد أبدا أو راكع لا يسجد أبدا، أو ساجد لا يرفع رأسه أبدا، فبكى ذو القرنين بكاء شديدا وقال:

يا رقائيل إني أحب أن أعيش حتى أبلغ من عبادة ربي وحق طاعته بما هو أهله، فقال له رقائيل: يا ذا القرنين إن لله في الأرض عينا تدعى عين الحياة، فيها عزيمة من الله أنه من يشرب منها لم يمت حتى يكون هو يسأل الله الموت، فإن ظفرت بها تعيش ما شئت قال: وأين ذلك العين وهل تعرفها؟ قال: لا، غير أنا نجد في السماء أن لله في الأرض ظلمة لم يطأها إنس ولا جان، فقال ذو القرنين: وأين تلك الظلمة؟ قال رقائيل ما أدري، ثم صعد رقائيل فدخل ذا القرنين حزن طويل من قول رقائيل، ومما أخبره عن العين والظلمة، ولم يخبره بعلم ينتفع به منهما.

جمع ذو القرنين فقهاء أهل مملكته وعلمائهم وأهل دراسة الكتب وآثار النبوة، فلما اجتمعوا عنده قال ذو القرنين: يا معشر الفقهاء وأهل الكتب وآثار النبوة هل وجدتم فيما قرأتم من كتب الله أو من كتب من كان قبلكم من الملوك إن لله عينا تدعى عين الحياة، فيها من الله عزيمة أنه من يشرب منها لم يمت حتى يكون هو الذي يسأل

الله الموت؟ قالوا: لا يا أيها الملك، قال: فهل وجدتم فيما قرأتم من الكتب إن لله في الأرض ظلمة لم يطأها إنس ولا جان؟ قالوا: لا أيها الملك، فحزن عليه ذو القرنين حزنا شديدا وبكى، إذ لم يخبر عن العين والظلمة بما يحب.

وكان فيمن حضره غلام من الغلمان من أولاد الأوصياء؛ أوصياء الأنبياء، وكان ساكتا لا يتكلم، حتى إذا أيس ذو القرنين منهم قال له الغلام: أيها الملك إنك تسأل هؤلاء عن أمر ليس لهم به علم، وعلم ما تريد عندي، ففرح ذو القرنين فرحا شديدا حتى نزل عن فراشه وقال له: أدن منّي، فدنا منه فقال: أخبرني، قال: نعم أيها الملك إني وجدت في كتاب آدم الذي كتب يوم سمى له ما في الأرض من عين أو شجر، فوجدت فيه أن لله عينا تدعى عين الحياة فيها من الله عزيمة أنه من يشرب منها لم يمت حتى يكون هو الذي يسأل الله الموت، بظلمة لم يطأها إنس ولا جان، ففرح ذو القرنين وقال: أدن منّي يا أيها الغلام أتدري أين موضعها؟ قال: نعم، وجدت في كتاب آدم أنها على قرن الشمس يعني مطلعها.

فرح ذو القرنين وبعث إلى أهل مملكته فجمع أشرافهم وفقهاءهم وعلماءهم وأهل الحكم منهم، فاجتمع إليه ألف حكيم وعالم وفقيه، فلما اجتمعوا إليه تهيأ للسير وتأهب له بأعد العدة وأقوى القوة،

فسار بهم يريد مطلع الشمس يخوض البحار ويقطع الجبال والفيافي والأرضين والمفاوز، فسار إثنا عشر سنة حتى انتهى إلى طرف الظلمة، فإذا هي ليست بظلمة الليل ولا دخان، ولكنها هواء يفور، فسدّ ما بين الأفقين، فنزل بطرفها وعسكر عليها وجمع علماء أهل عسكره وفقهائهم وأهل الفضل منهم، فقال:

يا معشر الفقهاء والعلماء إني أريد أن أسلك هذه الظلمة فخروا له سجدا وقالوا: يا أيها الملك إنك لتطلب أمرا ما طلبه ولا سلكه أحد كان قبلك من النبيين والمرسلين، ولا من الملوك؟ قال: إنه لا بد لي من طلبها، قالوا: أيها الملك إنا لنعلم أنك إذا سلكتها ظفرت بحاجتك منها بغير عنت عليك لأمرنا، ولكنا نخاف أن يعلق بك منها أمر يكون فيه هلاك ملكك وزوال سلطانك وفساد من في الأرض، فقال: لا بد من أن أسلكها، فخروا سجدا وقالوا: إنا نتبرأ إليك مما يريد ذو القرنين.

فقال ذو القرنين: يا معشر العلماء أخبروني بأبصر الدواب؟ قالوا: الخيل الإناث البكارة أبصر الدواب، فانتخب من عسكره فأصاب ستة آلاف فرس إناثا أبكارا، وانتخب من أهل العلم والفضل والحكمة ستة آلاف رجل، فدفع إلى كل رجل وعَقَدَ ل(أفسحر) وهو الخضر عليه السلام على ألف فرس، فجعلهم على مقدمته وأمرهم أن يدخلوا الظلمة، وسار ذو القرنين في أربعة آلاف وأمر أهل عسكره أن يلزموا معسكره اثني

عشر سنة، فإن رجع هو إليهم إلى ذلك الوقت والا تفرقوا في البلاد ولحقوا ببلادهم أو حيث شاءوا، فقال الخضر: أيها الملك إنا نسلك في الظلمة لا يرى بعضنا بعضا كيف نصنع بالضلال إذا أصابنا؟ فأعطاه ذو القرنين خرزة حمراء كأنها مشعل لها ضوء، فقال: خذ هذه الخرزة فإذا أصاب بكم الضلال فارم بها إلى الأرض فإنها تصيح، فإذا صاحت رجع أهل الضلال إلى صوتها، فأخذها الخضر ومضى في الظلمة، وكان الخضر يرتحل وينزل ذو القرنين، فبينا الخضر يسير ذات يوم إذ عرض له واد في الظلمة فقال لأصحابه:

قفوا هذا الموضع لا يتحركن أحد منكم عن موضعه، ونزل عن فرسه فتناول الخرزة فرمى بها في الوادي فأبطأت عنها بالإجابة حتى ساء ظنه وخاف أن لا يجيبه ثم أجابته، فخرج إلى صوتها فإذا هي العين بقعرها، وإذا ماؤها أشد بياضا من اللبن وأصفى من الياقوت، وأحلى من العسل، فشرب منه ثم خلع ثيابه فاغتسل منها، ثم لبس ثيابه ثم رمى بالخرزة نحو أصحابه فأجابته فخرج إلى أصحابه وركب وأمرهم بالمسير، فساروا.

ومر ذو القرنين بعده فاخطأ الوادي، فسلكوا تلك الظلمة بأربعين يوما وأربعين ليلة، ثم خرجوا بضوء ليس بضوء نهار ولا شمس ولا قمر ولكنه نور، فخرجوا إلى أرض حمراء رملة خشخاشة فركة كان

حصاها اللؤلؤ، فإذا هو بقصر مبني على طوله فرسخ، فجاء ذو القرنين إلى الباب فعسكر عليه ثم توجه بوجهه وحده إلى القصر، فإذا طائر وإذا حديدة طويلة قد وضع طرفاها على جانبي القصر، والطير أسود معلق بأنفه في تلك الحديدة بين السماء والأرض، مزموم كأنه الخطاف أو صورة الخطاف أو شبيه بالخطاف أو هو خطاف، فلما سمع خشخشة ذي القرنين قال: من هذا؟ قال: أنا ذو القرنين، قال: أما كفاك ما وراك حتى وصلت إلى حد بابي هذا؟ ففرق ذو القرنين فرقا شديدا فقال: يا ذا القرنين لا تخف وأخبرني، قال: سل، قال: هل كثر بنيان الآجر والجص؟ قال: نعم، قال: فانتفض الطير وامتلأ حتى ملأ من الحديدة ثلثها ففرق ذو القرنين فقال: لا تخف وأخبرني، قال: سل، قال:

هل كثرت المعازف؟ قال: نعم قال: فانتفض الطير وامتلاء حتى ملأ من الحديدة ثلثيها، ففرق ذو القرنين، فقال: لا تخف وأخبرني، قال: سل، قال: هل ارتكب الناس شهادة الزور في الأرض؟ قال: نعم، فانتفض انتفاضة وانتفخ فسد ما بين جداري القصر قال: فامتلأ ذو القرنين فرقا منه فقال له: لا تخف وأخبرني، قال: سل، قال: هل ترك الناس شهادة أن لا اله إلا الله؟ قال: لا، فانضم ثلثه، ثم قال: يا ذا القرنين لا تخف وأخبرني، قال: سل، قال: هل ترك الناس الصلاة المفروضة؟ قال: لا قال: فانضم ثلث آخر ثم قال: يا ذا القرنين لا

تخف وأخبرني، قال: سل، قال: هل ترك الناس الغسل من الجنابة؟ قال: لا، قال: فانضم حتى عاد إلى حاله الأول.

وإذا هو بدرجة مدرجة إلى أعلى القصر، قال: فقال الطير: يا ذا القرنين اسلك هذه الدرجة فسلكها وهو خائف لا يدري ما هو عليه حتى استوى على ظهرها، فإذا هو بسطح ممدود البصر، وإذا رجل شاب ابيض مضيء الوجه عليه ثياب بيض حتى كأنه رجل أو في صورة رجل أو شبيه بالرجل أو هو رجل، وإذا هو رافع رأسه ينظر إلى السماء ينظر إليها واضع يده على فيه، فلما سمع خشخشة ذي القرنين، قال:

من هذا؟ قال: أنا ذو القرنين، قال: يا ذا القرنين أما كفاك ما وراك حتى وصلت إليّ؟ قال ذو القرنين: ما لي أراك واضعا يدك على فيك؟ قال: يا ذا القرنين أنا صاحب الصور، وإن الساعة قد اقتربت وأنا انتظر أن أؤمر بالنفخ فأنفخ، ثم ضرب بيده فتناول حجرا فرمى به إلى ذي القرنين كأنه حجر أو شبه حجر أو هو حجر، فقال:

يا ذا القرنين خذ هذا، فإن جاع جعت وإن شبع شبعت فارجع فرجع ذو القرنين بذلك الحجر حتى خرج به إلى أصحابه، فأخبرهم بالطير وما سأله عنه وما قال له، وما كان من أمره، وأخبرهم بصاحب السطح وما قال له وما أعطاه، ثم قال لهم:

إنه أعطاني هذا الحجر وقال لي: إن جاع جعت، وان شبع شبعت-

وقال: أخبروني بأمر هذا الحجر فوضع الحجر في إحدى الكفتين، ووضع حجرا مثله في الكفة الأخرى، ثم رفع الميزان فإذا الحجر الذي جاء به أرجح بمثل الآخر، فوضعوا آخر فمال به حتى وضعوا ألف حجر كلها مثله، ثم رفعوا الميزان فمال بها ولم يستمل به الألف حجر فقالوا: يا أيها الملك لا علم لنا بهذا.

فقال له الخضر: أيها الملك إنك تسأل هؤلاء عما لا علم لهم به، وقد أوتيت علم هذا الحجر، فقال ذو القرنين: فأخبرنا وبيّنه لنا، فتناول الخضر الميزان فوضع الحجر الذي جاء به ذو القرنين في كفة الميزان، ثم وضع حجرا آخر في كفة أخرى، ثم وضع كف تراب على حجر ذي القرنين يزيده ثقلا، ثم رفع الميزان فاعتدل وعجبوا وخروا سجدا لله وقالوا: أيها الملك هذا أمر لم يبلغه علمنا، وإنا لنعلم أن الخضر ليس بساحر فكيف هذا وقد وضعنا معه ألف حجر كلها مثله، فمال بها، وهذا قد اعتدل به وزاده ترابا؟

قال ذو القرنين: بيّن يا خضر لنا أمر هذا الحجر، فقال الخضر: أيها الملك إن أمر الله نافذ في عباده، وسلطانه قاهر، وحكمه فاصل، وإن الله ابتلى عباده بعضهم ببعض، وابتلى العالم بالعالم، والجاهل بالجاهل، والعالم بالجاهل، والجاهل بالعالم، وإنه ابتلاني بك وابتلاك بي، فقال: يرحمك الله يا خضر إنما تقول: ابتلاني بك حين جعلت أعلم منى،

وجعلت تحت يدي، أخبرني يرحمك الله عن أمر هذا الحجر؟

فقال الخضر: أيها الملك إن هذا الحجر مثل ضربه لك صاحب الصور، يقول: إن مثل بنى آدم مثل هذا الحجر الذي وضع ووضع معه ألف حجر فمال بها، ثم إذا وضع عليه التراب شبع وعاد حجرا مثله، فيقول: كذلك مثلك أعطاك الله من الملك ما أعطاك فلم ترض به حتى طلبت أمرا لم يطلبه أحد كان قبلك، ودخلت مدخلا لم يدخله إنس ولا جان، يقول: كذلك ابن آدم لا يشبع حتى يحثى عليه التراب.

قال: فبكى ذو القرنين بكاء شديدا وقال: صدقت يا خضر، ضرب لي هذا المثل: لا جرم أني لا أطلب أثرا في البلاد بعد مسلكي هذا، ثم انصرف راجعا في الظلمة، فبيناهم كذلك يسيرون إذ سمعوا خشخشة تحت سنابك خيلهم فقالوا:

أيها الملك ما هذا؟ فقال: خذوا منه، فمن أخذ منه ندم ومن تركه ندم، فأخذ بعض وترك بعض، فلما خرجوا من الظلمة إذا هم بالزبرجد، فندم الآخذ والتارك[1]، ورجع ذو القرنين إلى دومة الجندل وكان بها منزله فلم يزل بها حتى قبضه الله.

(١) - أما ندم التارك فواضح فلأنه تمنى لو أخذ، وأما ندم الآخذ فإنه تمنى لو أنه استزاد مما أخذ.

إنّ قصّة ذي القرنين بشكل عام تحتوي على دروس تربوية كثيرة من الضروري الالتفات إليها والإفادة منها، وفي الواقع أنّها هي الهدف القرآني من إيرادها، ويمكن تلخيص هذه الدروس بالشكل الآتي:

١- إنّ أوّل درس تعلمنا إيّاه أنّ عمل هذه الدنيا لا يتمّ دون توفير أسبابه، لذا فإنّ الله تبارك وتعالى وهب الوسائل والأسباب لتقدم ذي القرنين وانتصاره في علمه: ﴿وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا﴾. وفي نفس الوقت استفاد «**ذو القرنين**» من هذه الأسباب والوسائل بأفضل وجه ممكن: ﴿فَأَتْبَعَ سَبَبًا﴾. لذلك فإنّ من يظن أنّه سيحصل على النصر من دون تهيئة أسبابه ومقدماته، فإنّه لا يصل إلى مرامه حتى لو كان ذا القرنين نفسه!

٢- بالرغم من أنّ غروب الشمس في عين من ماء آسن سببه خطأ في الباصرة واشتباه منها، إلّا أنّ المعنى الذي نلمحه من هذا المثال هو إمكان تغطية الشمس مع عظمتها بالعين الآسنة، ومثلها في ذلك مثل ذلك الإنسان العظيم الذي يسقط وينهار بسبب خطأ واحد فتغرب شخصيته من أنظار الناس.

٣- لا تستطيع أي حكومة أن تنتصر بدون ترغيب الأنصار والأتباع، ومعاقبة المذنبين والمخطئين، وهذا هو نفس الأساس الذي اعتمد

عليه ذو القرنين حيث قال: ﴿قالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ... وأَمَّا مَنْ آمَنَ وعَمِلَ صالِحاً فَلَهُ جَزاءً الْحُسْنى﴾.

والإمام أمير المؤمنين علي عليه السلام بلور هذا المعنى في رسالته إلى مالك الأشتر والتي هي برنامج كامل لإدارة البلاد، إذ يقول عليه السلام: **«ولا يكونن المحسن والمسيء عندك بمنزلة سواء، فإنّ في ذلك تزهيدا لأهل الإحسان في الإحسان، وتدريبا لأهل الإساءة على الإساءة»**[1].

٤- التكليف الشّاق وتصعيب الأمور وتحميل الناس ما لا يطيقون، كل هذه الأمور لا تناسب الحكومة الإلهية العادلة أبدا، ولهذا السبب فإنّ ذا القرنين بعد أن صرّح بمعاقبة الظالمين وتشويق الصالحين، أضاف: ﴿وسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنا يُسْراً﴾ حتى يمكن إنجاز الأعمال عن شوق ورغبة.

٥- الحكومة الكبيرة ذات الإمكانات الواسعة لا تتغاضى عن التفاوت والاختلاف القائم في حياة الناس وتراعي شرائط حياتهم المختلفة، ولهذا السبب فإنّ **«ذو القرنين»** صاحب الحكومة الإلهية والذي واجه أقواما مختلفة، كان يتعامل مع كل مجموعة بما يناسب حياتها الخاصّة، وبذلك كان الجميع منضوين تحت لوائه.

٦- إنّ **«ذو القرنين»** لم يستعبد حتى تلك المجموعة التي لم تكن

---

(١) - نهج البلاغة، الرسالة رقم ٥٣.

تفهم الكلام، أو كما وصفهم القرآن: ﴿لا يَكادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا﴾، بل إنّه استمع إلى مشاكلهم، ودأب على رفع احتياجاتهم بأي أسلوب كان، وبنى لهم سدا محكما بينهم وبين أعدائهم اللدودين (يأجوج ومأجوج)، وقد قام بإنجاز أمورهم بدون أن يفرّق بينهم (رغم أنّه كان يظهر أنّ مثل هؤلاء الناس عديمي الفهم لا ينفعون الحكومة بأي شيء). في حديث عن الإمام الصادق عليه السلام نقرأ قوله: **«إسماع الأصم من غير تصعرّ صدقة هنيئة»**[1].

٧- الأمن هو أوّل وأهم شرط من شروط الحياة الاجتماعية السليمة، لهذا السبب تحمّل **«ذو القرنين»** أصعب الأعمال وأشقها لتأمين أمن القوم من أعدائهم، وقد استفاد من أقوى السدود وأمنعها الذي أصبح مضرب الأمثال في التاريخ ورمزا للاستحكام والدوام والبقاء، حيث يقال لبناء القوي **«إنّه مثل سدّ الإسكندر»** بالرغم من أن **«ذو القرنين»** غير الإسكندر.

ومن البديهي القول أنه لا يمكن للمجتمع أن يسعد من دون قطع الطريق على المفسدين، ولهذا فإنّ أوّل شيء طلبه إبراهيم عليه السلام عند بناء الكعبة هو الأمن: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا﴾[2]. ولهذا السبب

(١) - سفينة البحار، ج ٢، مادة «صمم».

(٢) - سورة إبراهيم: آية ٣٥.

أيضا فإنّ الفقه الإسلامي وضع أقسى العقوبات للذين يعرضون أمن المجتمع إلى الخطر.

٨- الدرس الآخر الذي يمكن أن نتعلمه من هذه القصّة، هو أنّ أصحاب المشكلة الأصليين معنيين بالدرجة الأولى في الاشتراك في الجهد المبذول لحل مشكلتهم، لذا فإنّ «**ذو القرنين**» أعطى أمرا إلى الفئة التي اشتكت إليه أمر يأجوج ومأجوج بأن يجلبوا قطع الحديد، ثمّ أعطاهم الأمر بإشعال النار في أطراف السد لدمج القطع فيما بينها، ثمّ أمرهم بتهيئة النحاس المذاب، وعادة فإن العمل الذي يتمّ بمساهمة وحضور الأطراف الأصليين في المشكلة يؤدي إلى إظهار استعداداتهم ويعطي قيمة خاصّة للنتائج الحاصلة منه، وللجهود المبذولة فيه، ومن ثمّ يحرص الجميع للحفاظ عليه وإدامته بحكم تحملهم لمجهودات إنشائه. كما يتّضح من هذه النقطة أن، المجتمع المتخلف والمتأخّر يستطيع أن ينجز أعمالا مهمّة وعظيمة إذا تمتع ببرنامج صحيح وإدارة مخلصة.

٩- الزعيم الإلهي والقائد الرّباني لا يلتفت إلى الجزاء المادي والنفع المالي، وإنّما يقتنع بما حباه الله، لذا رأينا «**ذو القرنين**» عند ما اقترحوا عليه الأموال قال: ﴿ما مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ﴾، وهذا النمط من السلوك يخالف أساليب السلاطين وولعهم العجيب بجمع

الثروة والأموال. وفي القرآن الكريم نقرأ مرارا في قصص الأنبياء أنّهم لم يكونوا يطلبون المال جزاء لأعمالهم ودعواتهم.

ويمكن مشاهدة هذا الموضوع في أحد عشر موردا من القرآن الكريم، سواء ما يخص نبي الإسلام صلى الله عليه وآله وسلم أو الأنبياء السابقين، ففي بعض الأحيان يذكر القرآن تعبير: ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللهِ﴾. وفي أحيان أخرى يضع القرآن محبّة أهل البيت عليهم السلام، والذين هم ركن القيادة المستقبلية، أساسا للجزاء فيقول: ﴿قُلْ لا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبى﴾.

١٠- إحكام الأمور هو درس آخر نستفيده من هذه القصّة، فذو القرنين استفاد من القطع الحديدية الكبرى في بناء السد، وقد وصلها بالنّار، ثمّ غطّاها بالنحاس المذاب كي تمتنع عن التلف والصدأ إذا تعرضت للهواء والرطوبة.

١١- مهما كان الإنسان قويا ومتمكنا وصاحب قدرة واستطاعة في إنجاز الأعمال، فعليه أن لا يغتر بنفسه، وهذا هو درس آخر نتعلمه من قصة «**ذو القرنين**». فقد اعتمد في جميع شؤونه على قدرة الخالق جلّ وعلا، وقال بعد إتمام السد: ﴿هذا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي﴾. وعندما اقترحوا عليه المساعدة المالية قال: ﴿ما مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ﴾. وأخيرا عندما يتحدث عن فناء هذا السد المحكم، فإنّه لا ينسى أن

ينسب موعد ذلك إلى الله تعالى.

١٢- كل شي إلى زوال مهما كان محكما وصلدا، هذا هو الدرس الأخير في هذه القصة، وهو درس للذين يتمنون أو يظنون خلود المال أو المنصب والجاه.

نعم، إنّ سد ذي القرنين أمر هيّن قياسا إلى انطفاء الشمس وفناء الجبال الراسيات، إذا فكيف بالإنسان المعرّض للأضرار أكثر من غيره!؟ ألا يكفي التفكير بهذه الحقائق حافزا على الوقوف بوجه الاستبداد؟[١].

(١) - الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج٩، ص:٣٥٨- ٣٦٢.

الفصل الثالث

لقمان الحكيم

- قصة لقمان الحكيم
- معنى الحكمة
- موعظة لقمان لابنه
- آداب المشي
- آداب الحديث
- آداب العشرة
- حكم لقمان
- قصته مع ولده وحماره
- من حكم لقمان

لقمان الحكيم

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنْ اشْكُرْ للهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَابُنَيَّ لاَ تُشْرِكْ بِاللهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ ﴿وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنْ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾ ﴿وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلاَ تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ ﴿يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُنْ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوفِي السَّمَاوَاتِ أَوفِي الأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللهُ إِنَّ اللهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ ﴿يَا بُنَيَّ أَقِمْ الصَّلاَةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنْ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ﴾ ﴿وَلاَ تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلاَ تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ ﴿وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ

صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ الأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾ ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنْ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلاَ هُدًى وَلاَ كِتَابٍ مُنِيرٍ﴾[1].

(١) - سورة لقمان: الآيات ١٢- ٢٠.

قصة لقمان وحكمته

ورد اسم **«لقمان»** في آيتين من القرآن في هذه السورة، ولا يوجد في القرآن دليل صريح على أنّه كان نبيّا أم لا، كما أنّ أسلوب القرآن في شأن لقمان يوحي بأنّه لم يكن نبيّا، لأنّه يلاحظ في القرآن أنّ الكلام في شأن الأنبياء عادة يدور حول الرسالة والدعوة إلى التوحيد ومحاربة الشرك وانحرافات البيئة والمجتمع، وعدم المطالبة بالأجر والمكافأة، وكذلك بشارة الأمم وإنذارها، في حين أنّ أيّا من هذه الأمور لم يذكر في شأن لقمان، والذي ورد هو مجموعة مواعظ خاصّة مع ولده (رغم شموليتها وعموميتها)، وهذا دليل على أنّه كان رجلا حكيما وحسب[١]. ففي الحديث لم يكن لقمان نبيا، ولكن كان عبدا كثير التفكر حسن اليقين أحب الله فأحبه، فمنّ عليه بالحكمة[٢].

روي أنه كان ابن أخت أيوب أو ابن خالته، وروي أنه كان قاضي بني إسرائيل، واختلف في صناعته، فقيل: كان نجارا وقيل: خياطا، وقيل: راعي غنم، وكان ابنه كافرا فما زال يوصيه حتى أسلم، وروي أن اسم ابنه ثاران[٣]. وقيل هو لقمان بن باعور بن ناخور بن تارخ وهوازر. عاش

(١) - الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج١٣، ص: ٣٩- ٤٠.

(٢) - أنظر ميزان الحكمة، محمد الريشهري، ج٤، ص٣١٢٤، كذلك بحار الأنوار، وسائر التفاسير.

(٣) - كتاب التسهيل لعلوم التنزيل، ج٢، ص:١٣٧- ١٣٨.

حتى أدرك داود عليه السلام وأخذ منه العلم، وكان يفتي قبل مبعثه ثم ترك الفتيا بعد مبعثه، وقال ألا اكتفى إذا كفيت. وجاء في الدر المنثور عن ابن عباس: كان لقمان عبدا حبشيا نجارا وقال مجاهد: كان عبدا اسود عظيم الشفتين متشقق القدمين. وقال سعيد بن المسيب: كان خياطا وقيل كان راعي غنم والله اعلم.

والْحِكْمَةَ في القاموس وهي العدل والعلم والحلم والنبوة والقرآن والإنجيل. والمراد بالحكمة في قوله صلى الله عليه وآله وسلم إن من الشعر لحكمة؛ هو العلم. قال البغوي: اتفق العلماء على أنه كان حكيما أي فقيها عليما ولم يكن نبيّا، إلا عكرمة فإنه قال كان نبيّا وتفرد بهذا القول[1].

في مجمع البيان عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: حقا أقول لم يكن لقمان نبيا ولكن كان عبدا كثير التفكر حسن اليقين، أحب الله فأحبه، ومن عليه بالحكمة، كان نائما نصف النهار إذ جاءه نداء يا لقمان هل لك أن يجعلك الله خليفة في الأرض تحكم بين الناس بالحق، فأجاب الصوت: إن خيرني ربي قبلت العافية ولم أقبل البلاء وإن عزم علي فسمعا وطاعة، فإني أعلم أنه إن فعل بي ذلك أعانني وعصمني، فقالت الملائكة بصوت لا يراهم لمَ يا لقمان، قال: لأن الحكم أشد المنازل وآكدها يغشاه الظلم من كل مكان، إن وقى فبالحري أن ينجو وإن أخطأ

(١) - التفسير المظهري، ج٧، ص:٢٥٢- ٢٥٣.

أخطأ طريق الجنة، ومن يكن في الدنيا ذليلا وفي الآخرة شريفا خير من أن يكون في الدنيا شريفا وفي الآخرة ذليلا، ومن يختر الدنيا على الآخرة تفتّه الدنيا ولا يصيب الآخرة، فتعجبت الملائكة من حسن منطقه، فنام نومة فأعطي الحكمة فانتبه يتكلم بها، ثم كان يؤازر داود بحكمته، فقال له داود: طوبى لك يا لقمان أعطيت الحكمة وصرفت عنك البلوى[1].

يقول المولى سبحانه وتعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾[2].

في تفسير علي بن إبراهيم عن حماد قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن لقمان وحكمته التي ذكرها الله عزَّ وجل، فقال: أما والله ما أوتي لقمان الحكمة بحسب ولا مال ولا أهل ولا بسط في جسم ولا جمال، ولكنه كان رجلا قويا في أمر الله، متورعا في الله ساكتا مستكينا عميق النظر طويل الفكر حديد النظر، مستغن بالعبر لم ينم نهارا قط، ولم يره أحد من الناس على بول ولا غائط ولا اغتسال، لشدة تستره وعموق نظره وتحفظه في أمره، ولم يضحك من شيء قط مخافة الإثم، ولم يغضب قط ولم يمازح إنسانا قط، ولم يفرح بشيء أتاه من أمر الدنيا ولا حزن منها على شيء قط، وقد نكح من النساء وولد له من الأولاد

(١) - مجمع البيان في تفسير القرآن، ج٨، ص: ٤٩٤.

(٢) - سورة لقمان: آية١٢.

الكثير وقدم أكثرهم إفراطا فما بكى على موت أحد منهم، ولم يمر برجلين يختصمان أو يقتتلان إلا أصلح بينهما، ولم يمض عنهما حتى تحابا، ولم يسمع قولا قط من أحد استحسنه إلا سأل عن تفسيره وعمن أخذه، وكان يكثر مجالسة الفقهاء والحكماء، وكان يغشى القضاة والملوك والسلاطين فيرثي للقضاة مما ابتلوا به، ويرحم الملوك والسلاطين لغرتهم بالله وطمأنينتهم في ذلك، ويعتبر ويتعلم ما يغلب به نفسه، ويجاهد به هواه ويحترز به من الشيطان، وكان يداوي قلبه بالفكر ويداوي نفسه بالعبر، وكان لا يظعن إلا فيما يعنيه فبذلك أوتي الحكمة ومنح العصمة، وأن الله تبارك وتعالى أمر طوائف من الملائكة حين انتصف النهار وهدأت العيون بالقائلة[1] فنادوا لقمان حيث يسمع ولا يراهم، فقالوا: يا لقمان هل لك أن يجعلك الله خليفة في الأرض تحكم بين الناس؟ فقال لقمان: إن أمرني الله بذلك فالسمع والطاعة، لأنه إن فعل ذلك أعانني عليه وعلمني وعصمني، وإن هو خيرني قبلت العافية، فقالت الملائكة:

يا لقمان لم؟ قال: لأن الحكم بين الناس بأشد المنازل وأكثر فتنا وبلاء ما يخذل ولا يعان، ويغشاه الظلم من كل مكان وصاحبه فيه بين أمرين إن أصاب فيه الحق فبالحري أن يسلم، وإن أخطأ أخطأ طريق

(١) - هدأت العيون أي سكنت، والقائلة: منتصف النهار.

الجنة، ومن يكن في الدنيا ذليلا ضعيفا كان أهون عليه في المعاد من أن يكون حكما سريا شريفا[1] ومن اختار الدنيا على الآخرة يخسرهما كلتاهما، تزول هذه ولا يدرك تلك، قال: فتعجبت الملائكة من حكمته واستحسن الرحمن منطقه، فلما أمسى وأخذ مضجعه من الليل أنزل الله عليه الحكمة فغشاه بها من قرنه إلى قدمه وهو نائم، وغطاه بالحكمة غطاء، فاستيقظ وهو أحكم الناس في زمانه، وخرج على الناس ينطق بالحكمة ويبثها فيهم. قال: فلما أوتى الحكم بالخلافة ولم يقبلها أمر الله عزَّ وجل الملائكة فنادت داود عليه السلام بالخلافة فقبلها ولم يشترط فيها بشرط لقمان، فأعطاه الله عزَّ وجل الخلافة في الأرض وابتلى بها غير مرة كل ذلك يهوى في الخطاء، يقيله الله تعالى ويغفر له، وكان لقمان يكثر زيارة داود عليه السلام ويعظه بمواعظه وحكمته وفضل علمه، وكان داود عليه السلام يقول له: طوبى لك يا لقمان أوتيت الحكمة وصرفت عنك البلية، وأعطى داود عليه السلام الخلافة وابتلي بالحكم والفتنة[2].

معنى الحكمة

لقد ذكروا للحكمة معاني كثيرة، مثل: معرفة أسرار عالم الوجود، والإحاطة والعلم بحقائق القرآن، والوصول إلى الحقّ من جهة القول

(١) - السري: السيد الشريف.

(٢) - تفسير نور الثقلين، ج٤، ص:١٩٦- ١٩٨.

والعمل، ومعرفة الله.

إلّا أنّ كلّ هذه المعاني يمكن جمعها في تعريف واحد، فالحكمة التي يتحدّث عنها القرآن، والتي كان الله قد آتاها لقمان، كانت مجموعة من المعرفة والعلم، والأخلاق الطاهرة والتقوى ونور الهداية[1]. ففي حديث عن الإمام موسى بن جعفر عليه السلام، أنّه قال لهشام بن الحكم في تفسير هذه الآية: **«إنّ الحكمة هي الفهم والعقل»**[2]. وفي حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السلام في تفسير هذه الآية، أنّه قال: **«أوتي معرفة إمام زمانه»**[3]. ومن الواضح أنّ كلّا من هذه المفاهيم يعتبر أحد فروع معنى الحكمة الواسع، ولا منافاة بينها.

إن لقمان بامتلاكه هذه الحكمة كان يشكر الله، فقد كان يعلم الهدف من وراء هذه النعم الإلهيّة، وكيفيّة استغلالها والاستفادة منها، وكان يضعها بدقّة وصواب كامل في مكانها المناسب لتحقيق الهدف الذي خلقت من أجله، وهذه هي الحكمة، هي وضع كلّ شيء في موضعه، وبناء على هذا فإنّ الشكر والحكمة يعودان إلى نقطة واحدة. فقد أعطاه ربنا الحكمة، وأوجزها في كلمة ﴿أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ﴾ ويبدو أن الشكر يجمع فضائل عديدة أبرزها:

---

(١) - الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج١٣، ص: ٣٣.

(٢) - أصول الكافي، ج ٢، ص ١٣.

(٣) - نور الثقلين، الجزء ٤، صفحة ١٩٦.

أ: الاعتراف بفقدان النعمة ذاتا، فلولا فضل الله علينا لما كنّا مخلوقين، ولما كانت لنا الأسماع والأبصار والأفئدة، ومن هذا الاعتراف تنبثق فضيلة التواضع، وتجنب الخيلاء والفخر، وعدم تحدي الناس استكبارا وسائر ما ذكر في الآيات.

ب: التصديق بفضل من أنعم علينا وهو الله سبحانه، ولا يتم التصديق إلا بتوحيده، والا نشرك به من لا فضل له علينا أنى كان حتى ولو كان واسطة وصول الفضل إلينا.

ج: احترام وسائط الفضل الذين قاموا بدور في وصول النعمة إلينا وأبرزهم الوالدان، إذ إن إتباع سبيل من أناب إلى الله يشير إلى احترام التجمع الإيماني.

د: السعي نحو تكريس النعمة، واتقاء ما يسبب زوالها. أولا: بمعرفة أن عمل الإنسان يؤثر في بقاء أو زوال النعمة. ثانيا: بإقامة الصلاة، التي هي مظهر الشكر لله. ثالثا: بالدعوة إلى الخير والنهي عن الشر والصبر عند المكاره. هكذا نعرف أن الشكر لله حقا هو أساس الحكمة الإلهية.

إن الإحسان إلى الناس ظاهرة تنبع من الشكر لله سبحانه، ذلك أنه يعني الرضا النفسي والعملي، الذي ينعكس على السلوك في صورة عطاء وتضحية وجهاد، مقابلة لجميل نعم الله، وإحساسا بالمسؤولية

تجاهها. ولكل نعمة شكر يختص بها، تبعا لمعطياتها، فشكر نعمة العلم نشره وهداية الناس به: **«زكاة العلم نشره»**[1].

وشكر المال بذله للمحتاجين: **«زكاة المال بذله»** بينما شكر نعمة القوة السعي لتحقيق الأهداف السامية كإقامة حكم الله في الأرض من خلال الجهاد الشامل.

يقول المولى عزَّ وجل: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ...﴾، فبذل الإنسان للنعمة في مجالها الذي حدده الله هو الشكر، وسنن الله في الحياة – التشريعية منها والتكوينية – تقتضي بذلك نماء النعمة، فمن حكمة الله أن تسقي السماء الأرض ذات الزرع أكثر من الجرداء، وأن من يستخدم عضلاته أكثر هو الذي تنمو العضلات لديه، بينما تضمر عند الخامل، وأن من يقرأ أكثر ينمو عقله وفكره، والذي لا يستفيد من النعم أو يستخدمها في غير مجالاتها المحددة لا تنمو لديه وتكون مضرة له، كما لو بذل العلم للتباهي أو المال في اللهو واللعب.

ثم يضيف: ﴿وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ﴾، لأن المحتاج للشكر هو الإنسان لا الله المتعالي عن الحاجة، والشكر هنا يشمل أيضا الناس، لكن ضمن هدف محدد هو أن يكون ذلك من أجل الله وحده،

(١) – بحار الأنوار،ج ، ٧٨، ص ٢٤٧.

وطلبا لمرضاته، وذلك كله يعود على الإنسان نفسه، بما يسببه الشكر من إنماء النعمة: ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾.

﴿وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾، وليس غنى الله كغنى الناس، لأن الآخر غالبا ما يتأسس على النهب والاستغلال، أو يصرف في سحق الآخرين وابتزازهم حقوقهم- وهو غيري- بينما غنى الله ذاتي يتفضل به على الآخرين خيرا ونعمة، وهذا هو الغنى المحمود.

ثم تتعرض الآيات لبعض وصايا لقمان عليه السلام لابنه، والتي تشكل أبعاد الحكمة، ومفردات الشكر لله.

وأول ما يفتتح وصاياه يبين له العلاقة الفاضلة التي يجب أن ينتهجها مع الآخرين، والتي تقوم على مبدأ التوحيد، فيحذره من الشرك، فالخضوع المطلق لا ينبغي إلا لله سبحانه، أما البشر فيتقبل توجيهاتهم الصائبة، ولكن بشرط المحافظة على استقلاليته تجاههم بالتوحيد. فالتوحيد هو الجوهر الذي يجب على الإنسان اعتماده في كل سلوك فردي أو اجتماعي، وهذا ما دعا إليه كل الأنبياء، ولعل هذا التأكيد على موضوع الشرك في القرآن يرجع إلى عامل مهم وهو أن مشكلة الإنسان في غالب الأحيان ليس الكفر المحض، فهو يؤمن بإله لهذا الكون، إنما مشكلته هي الشرك بالله[1].

(١) - من هدى القرآن، ج١٠، ص: ١٣٨- ١٤٣.

موعظة لقمان لابنه

يقول تعالى في محكم كتابه العزيز: ﴿وإِذْ قالَ لُقْمانُ لِابْنِهِ وهُو يَعِظُهُ يا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ بِاللهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾.

إنّ حكمة لقمان توجب عليه أن يتوجّه قبل كلّ شيء إلى أهمّ المسائل الأساسية، وهي مسألة التوحيد... التوحيد في كلّ المجالات والأبعاد، لأنّ كلّ حركة هدّامة ضدّ التوجّه الإلهي تنبع من الشرك، من عبادة الدنيا والمنصب والهوى وأمثال ذلك، والذي يعتبر كلّ منها فرعا من الشرك.

كما أنّ أساس كلّ الحركات الصحيحة البنّاءة هو التوحيد والتوجّه إلى الله، وإطاعة أوامره، والابتعاد عن غيره، وكسر كلّ الأصنام في ساحة كبريائه! وممّا يستحقّ الإشارة أنّ لقمان الحكيم قد جعل علّة نفي الشرك هو أنّ الشرك ظلم عظيم، وقد أحيط بالتأكيد من عدّة جهات، وأيّ ظلم أعظم منه، حيث جعلوا موجودات لا قيمة لها في مصافّ الله ودرجته، هذا من جانب، ومن جانب آخر يجرّون الناس إلى الضلال والانحراف، ويظلمونهم بجناياتهم وجرائمهم، وهم يظلمون أنفسهم أيضا حيث ينزلونها من قمّة عزّة العبودية لله ويهوون بها إلى منحدر ذلّة العبودية لغيره.

والآيتان التاليتان جمل معترضة ذكرها الله تعالى في طيّات مواعظ

لقمان، لكنّ هذا الاعتراض لا يعني عدم الاتّصال والارتباط، بل يعني الصلة الواضحة لكلام الله عزّ وجلّ بكلام لقمان، لأنّ في هاتين الآيتين بحثا عن نعمة وجود الوالدين ومشاقّهما وخدماتهما وحقوقهما، وجعل شكر الوالدين في درجة شكر الله[1]. ﴿ووَصَّيْنَا الْإِنْسانَ بِوالِدَيْهِ، حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْناً عَلى وَهْنٍ، وفصالُهُ في عامَيْنِ، أَنِ اشْكُرْ لِي ولِوالِدَيْكَ، إِلَيَّ الْمَصِيرُ. وإِنْ جاهَداكَ عَلى أَنْ تُشْرِكَ بِي ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُما، وصاحِبْهُما في الدُّنْيا مَعْرُوفاً، واتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنابَ إِلَيَّ. ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

إن توصية الولد بالوالدين تتكرر في القرآن الكريم، وفي وصايا رسول الله ﷺ ولم ترد توصية الوالدين بالولد إلا قليلا. ومعظمها في حالة الوأد- وهي حالة خاصة في ظروف خاصة- ذلك أن الفطرة تتكفل وحدها برعاية الوليد من والديه، فالفطرة مدفوعة إلى رعاية الجيل الناشئ لضمان امتداد الحياة، كما يريدها الله، وإن الوالدين ليبذلان لوليدهما من أجسامهما وأعصابهما وأعمارهما ومن كل ما يملكان من عزيز وغال، في غير تأفف ولا شكوى بل في غير انتباه ولا شعور بما يبذلان! بل في نشاط وفرح وسرور كأنهما هما اللذان يأخذان! فالفطرة وحدها كفيلة بتوصية الوالدين دون وصاية، فأما الوليد

(١) - الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج١٣، ص: ٣٥- ٣٦.

فهو في حاجة إلى الوصية المكررة ليلتفت إلى الجيل المضحي المدبر المولّي الذاهب في أدبار الحياة، بعدما سكب عصارة عمره وروحه وأعصابه للجيل المتجه إلى مستقبل الحياة! وما يملك الوليد وما يبلغ أن يعوّض الوالدين بعض ما بذلاه، ولو وقف عمره عليهما.

هذه الصورة الموحية: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْناً عَلى وَهْنٍ وفِصالُهُ فِي عامَيْنِ﴾ ترسم ظلال هذا البذل النبيل، والأم بطبيعة الحال تحتمل النصيب الأوفر وتجود به في انعطاف أشد وأعمق وأحنى وأرفق. روي أن رجلا كان في الطواف حاملا أمه يطوف بها، فسأل النبي-ﷺ سلّم- هل أديت حقها؟ قال: **«لا؛ ولا بزفرة واحدة»**. هكذا .. ولا بزفرة ... في حمل أو في وضع، وهي تحمله وهنا على وهن. وفي ظلال تلك الصورة الحانية يوجه إلى شكر الله المنعم الأول، وشكر الوالدين المنعمين التاليين ويرتب الواجبات، فيجيء شكر الله أولا ويتلوه شكر الوالدين[1].

هذه المسألة: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْناً عَلى وَهْنٍ...﴾ قد ثبتت من الناحية العلمية، إذ أوضحت التجارب أنّ الأمهات في فترة الحمل يصبن بالضعف والوهن، لأنّهنّ يصرفن خلاصة وجودهنّ في تغذية وتنمية الجنين، ويقدّمن له من موادهنّ الحياتية أفضلها، ولذلك فإنّ الأمهات

(١) - في ظلال القرآن، ج٥، ص: ٢٧٨٨.

أثناء فترة الحمل يبتلين بنقص أنواع الفيتامينات وفي حالة عدم تعويض هذا النقص فسيؤدّي إلى آلام ومتاعب كثيرة، وهذا الأمر يستمر حتّى في فترة الرضاعة، لأنّ اللبن عصارة وجود الأم، ولهذا تضيف بعد ذلك فترة رضاعه سنتان، ﴿وفِصالُهُ فِي عامَيْنِ﴾ كما أشير إلى ذلك في موضع آخر من القرآن: ﴿والْوالِداتُ يُرْضِعْنَ أَوْلادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كامِلَيْنِ﴾[1]، والمراد فترة الرضاعة الكاملة، وإن كانت تتمّ أحيانا بفترة أقلّ.

إنّ الأم في هذه الثلاثة وثلاثين شهراً - فترة الحمل، وفترة الرضاع - تبدي وتقدّم أعظم تضحية لولدها، سواء كان من الجانب الروحي والعاطفي، أو الجسمي، أو من جهة الخدمة والرعاية.

والملفت للنظر هنا أنّها توصي في البداية بالوالدين معا، إلّا أنّها عند بيان المشاقّ والمتاعب تؤكّد على متاعب الأم، لتنبّه الإنسان إلى إيثارها وتضحياتها وحقّها العظيم.

ثمّ تقول: ﴿أَنِ اشْكُرْ لِي ولِوالِدَيْكَ﴾؛ فاشكرني لأنّي خالقك والمنعم الأصلّي عليك، ومنحتك مثل هذين الأبوين العطوفين الرحيمين، واشكر والديك لأنّهما واسطة هذا الفيض وقد تحمّلا مسؤولية إيصال نعمي إليك، فما أجمل أن يجعل شكر الوالدين قرين شكر الله! وما أعمق مغزاه! ويقول الله تعالى في نهاية الآية بنبرة لا تخلو من التهديد

(١) - سورة البقرة: آية ٢٣٣.

والعتاب: ﴿إِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾. نعم، فإنّك إذا قصّرت هنا فستحاسب على كلّ هذه الحقوق والمصاعب والخدمات بدقّة، فيجب على الإنسان أن يؤدّي ما عليه من شكر مواهب الله، وكذلك شكر نعمة وجود الأبوين وعواطفهما الصادقة الطاهرة لينجح في ذلك الحساب وتلك المحكمة.

إنّ الوصيّة بالإحسان إلى الأبوين قد توجد الاشتباه والوهم عند البعض وذلك حينما يظنّ أنّه يجب مداراتهما واتّباعهما حتّى في مسألة العقيدة والكفر والإيمان، لكنّ الآية التالية تقول: ﴿وإِنْ جاهَداكَ عَلى أَنْ تُشْرِكَ بِي ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُما...﴾ فيجب أن لا تكون علاقة الإنسان بأمّه وأبيه مقدّمة على علاقته بالله مطلقا، وأن لا تكون عواطف القرابة حاكمة على عقيدته الدينيّة أبدا، وجملة: ﴿جاهَداكَ﴾ إشارة إلى أنّ الأبوين قد يظنّان أحيانا أنّهما يريدان سعادة الولد، ويسعيان إلى جرّه إلى عقيدتهما المنحرفة والإيمان بها، وهذا يلاحظ لدى كلّ الآباء والأمهات. إنّ واجب الأولاد أن لا يستسلموا أبدا أمام هذه الضغوط، ويجب أن يحافظوا على استقلالهم الفكري، ولا يساوموا على عقيدة التوحيد، أو يبدّلوها بأيّ شيء.

ثمّ إنّ جملة: ﴿ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ...﴾ تشير ضمنا إلى أنّنا لو نتجاهل أدلّة بطلان الشرك، ولم نقم لها وزنا، فإنّه لا يوجد دليل على إثباته، ولا يستطيع أيّ متعنّت إثبات الشرك بالدليل، وإذا تجاوزنا ذلك، فإنّ

الشرك إن كانت له حقيقة، فينبغي أن يكون هناك دليل على إثباته، ولمّا لم يكن هناك دليل على إثباته، فإنّ هذا بنفسه دليل على بطلانه.

ولمّا كان من الممكن أيضا أن يوجد هذا الأمر، توهّم وجوب استخدام الخشونة مع الوالدين المشركين وعدم احترامهما، ولذلك أضافت الآية أنّ عدم طاعتهما في مسألة الشرك ليس دليلا على وجوب قطع العلاقة معهما، بل تأمره الآية أن: ﴿وصاحِبْهُما فِي الدُّنْيا مَعْرُوفاً﴾. فلاطفهما وأظهر المحبّة لهما في الحياة الدنيويّة والمعاشرة، ولا تستسلم لأفكارهما واقتراحاتهما من الناحية العقائدية والبرامج الدينيّة، وهذه بالضبط نقطة الاعتدال الأصليّة التي تجمع فيها حقوق الله والوالدين، ولذا يضيف بعد ذلك: ﴿واتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنابَ إِلَيَّ﴾ لأنّ المصير إليه سبحانه: ﴿ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

إنّ سبب النفي والإثبات المتلاحق، والأوامر والنواهي المتتابعة في الآيات أعلاه هو أن يجد المسلمون الخطّ الأصلي ويشخّصوه في مثل هذه المسائل، حيث يبدو في أوّل الأمر أنّ هناك تناقضا في أداء هذين الواجبين، فإن تفكّروا قليلا فإنّ المسير الصحيح سيكون نصب أعينهم، وسيسيرون فيه دون أدنى إفراط ولا تفريط، وهذه الدقّة واللطافة القرآنية في أمثال هذه الدقائق من صور فصاحة القرآن وبلاغته العميقة[1].

(١) - الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج١٢، ص:٣٧- ٣٩.

كانت أولى مواعظ لقمان عن مسألة التوحيد ومحاربة الشرك، وثانيتها عن حساب الأعمال والمعاد، والتي تكمّل حلقة المبدأ والمعاد، فيقول: ﴿يا بُنَيَّ إِنَّها إِنْ تَكُ مِثْقالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوِ فِي السَّماواتِ أَوِ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللهُ﴾. و«الخردل»: نبات له حبّات سوداء صغيرة جدّا يضرب المثل بصغرها، وهذا التعبير إشارة إلى أنّ أعمال الخير والشرّ مهما كانت صغيرة لا قيمة لها، ومهما كانت خفيّة كخردلة في بطن صخرة في أعماق الأرض، أو في زاوية من السماء، فإنّ الله اللطيف الخبير المطّلع على كلّ الموجودات، صغيرها وكبيرها في جميع أنحاء العالم، سيحضرها للحساب والعقاب والثواب، ولا يضيّع شيئا في هذا الحساب.

إن أفعال الإنسان من الخير أو الشر أو أفعاله بقرينة المقام، إن كانت في الصّغر مقدار خردلة فَتَكُنْ فِي أخفى المواضع كجوف صَخْرَةٍ أو في أعلاها فِي السَّماواتِ، أو فِي أسفلها فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللهُ، أي يحضرها ليحاسب عليها، إِنَّ اللهَ لَطِيفٌ نافذ القدرة، بحيث يصل علمه إلى كلّ خفيّ، خَبِيرٌ عارف بكنه ذات الشيء وحقيقته. روى العياشي عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: اتقوا المحقّرات من الذّنوب فإن لها طالبا[1].

(١) - الجديد في تفسير القرآن المجيد، ج٥، ص: ٣٩٠.

ويتابع لقمان وصاياه لابنه فيقول: ﴿يا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ، واصْبِرْ عَلى ما أَصابَكَ. إِنَّ ذلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾.

نعم هذا هو طريق العقيدة، توحيد الله، وشعور برقابته، وتطلع إلى ما عنده، وثقة في عدله، وخشية من عقابه، ثم انتقال إلى دعوة الناس وإصلاح حالهم، وأمرهم بالمعروف، ونهيهم عن المنكر، والتزود قبل ذلك كله للمعركة مع الشر، بالزاد الأصيل، زاد العبادة لله والتوجه إليه بالصلاة، ثم الصبر على ما يصيب الداعية إلى الله، من التواء النفوس وعنادها، وانحراف القلوب وإعراضها، ومن الأذى تمتد به الألسنة وتمتد به الأيدي، ومن الابتلاء في المال والابتلاء في النفس عند الاقتضاء[1].

جاء في وصية أمير المؤمنين علي عليه السلام لابنه محمد بن الحنفية: يا بنيّ إقبل من الحكماء مواعظهم، وتدبر أحكامهم وكن آخذ الناس بما تأمر به، وأكف الناس عما تنهى عنه، وأمر بالمعروف تكن من أهله، فإن استتمام الأمور عند الله تبارك وتعالى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر[2].

وعن الإمام الرضا عليه السلام قال: سمعت أبا الحسن عليه السلام يقول:

(١) - في ظلال القرآن، ج٥، ص: ٢٧٩٠.

(٢) - تفسير نور الثقلين، ج٤، ص: ٢٠٥.

لتأمرون بالمعروف ولتنهن عن المنكر أو ليستعملن عليكم شراركم فيدعو خياركم فلا يستجاب لهم[١].

ثم يتابع لقمان الحكيم: ﴿واصْبِرْ عَلى ما أَصابَكَ إِنَّ ذلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾. من المسلّم أنّه توجد مشاكل وعقبات كثيرة في سائر الأعمال الاجتماعية، وخاصّة في مسألة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومن المسلّم أيضا أنّ أصحاب المصالح والمتسلّطين والمجرمين والأنانيّين لا يستسلمون بهذه السهولة، بل يسعون إلى إيذاء واتّهام الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر، ولا يمكن الانتصار على هذه المصاعب والعقبات بدون الصبر والتحمّل والاستقامة أبدا.

و«**العزم**» بمعنى الإرادة المحكمة القويّة، والتعبير بـ: ﴿عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ هنا إمّا بمعنى الأعمال التي أمر الله بها أمرا مؤكّدا، أو الأمور والأعمال التي يجب أن يمتلك الإنسان فيها إرادة فولاذية وتصميما راسخا، وأيّا من هذين المعنيين كان فإنّه يشير إلى أهميّة تلك الأعمال[٢].

من المؤكد أن الصبر ليس مظهر ضعف ولا حالة هروب من الواقع، ولا ابتعاد عن مواجهة التحدي، بل هو مظهر قوّة في انتصار الإنسان على طبيعة الانفعال في مشاعره، واهتزاز الاندفاع في خطواته، وحركة الارتجال في مواقفه، ليكون البديل عن ذلك عقلانية في التفكير،

(١) – وسائل الشيعة، ج١١، ص٣٩٤.

(٢) – الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج١٣، ص: ٤٦.

واتزانا في الخطوات، وتخطيطا في المواقف، ليحدّد طريقه على أساس الدراسة الواعية المنفتحة على كل آفاق الحاضر والمستقبل، وليواجه التحديات الطاغية، بالخطة الدقيقة المتوازنة الباحثة عن الوصول إلى الهدف من أقرب طريق، إنها العزيمة الثابتة القوية الصلبة التي تمنح الإنسان معنى الصلابة في شخصيته، ليواجه الحياة من هذا الموقع[1].

بعد ذلك يقول: ﴿ولا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾ أي لا تعرض بوجهك عن الناس إذا كلموك تكبرا واحتقارا، والمعنى: لا تتكبر فتحتقر عباد الله، ولا تتكلم وأنت معرض، بل كن متواضعا سهلا هينا لينا منبسط الوجه، مستهل البشر، كما جاء في الحديث النبوي الذي رواه مسلم عن أبي ذر الغفاري: **«لا تحقرنّ من المعروف شيئا، ولو أن تلقى أخاك ووجهك إليه منبسط، وإياك وإسبال الإزار، فإنها من المخيلة، والمخيلة لا يحبها الله»**[2]. فلقمان يوصي ولده بالقول: يا بني لا تعرض بوجهك عن الناس إذا كلموك تكبرا واحتقارا، بل كن متواضعا سهلا هينا لينا، منبسط الوجه، مستهل البشر. ولا تسر في الأرض مختالا متبخترا، جبارا عنيدا.

جاء في التفاسير أن الصعر داء يصيب الإبل فيلوي أعناقها، والأسلوب القرآني يختار هذا التعبير للتنفير من الحركة المشابهة للصعر،

(١) - تفسير من وحي القرآن، ج١٨، ص: ١٩٧.

(٢) - التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، ج٢١، ص: ١٥٠

حركة الكبر والازورار، وإمالة الخد للناس في تعال واستكبار![1].

و«المختال»: من مادّة (الخيال) و(الخيلاء)، وتعني الشخص الذي يرى نفسه عظيما وكبيرا، نتيجة سلسلة من التخيّلات والأوهام.

و«الفخور»: من مادّة (الفخر) ويعني الشخص الذي يفتخر على الآخرين، والفرق بين كلمتي المختال والفخور، أنّ الأولى إشارة إلى التخيّلات الذهنيّة للكبر والعظمة، أمّا الثّانية فهي تشير إلى أعمال التكبّر الخارجي.

وعلى هذا، فإنّ لقمان الحكيم يشير هنا إلى صفتين مذمومتين جدّا وأساس توهين وقطع الروابط الاجتماعية الصميميّة: إحداهما التكبّر وعدم الاهتمام بالآخرين، والأخرى الغرور والعجب بالنفس، وهما مشتركتان من جهة دفع الإنسان إلى عالم من التوهّم والخيال ونظرة التفوّق على الآخرين، وإسقاطه في هذه الهاوية، وبالتالي تقطعان علاقته بالآخرين وتعزلانه عنهم، خاصّة وأنّه بملاحظة الأصل اللغوي ل **«صعّر»** سيتّضح أنّ مثل هذه الصفات مرض نفسي وأخلاقي، ونوع من الانحراف في التشخيص والتفكير، وإلّا فإنّ الإنسان السالم من الناحية الروحية والنفسية لا يبتلى مطلقا بمثل هذه الظنون والتخيّلات.

---

(١) - في ظلال القرآن، ج٥، ص: ٢٧٩٠.

ولا يخفى أنّ مراد لقمان لم يكن مسألة الإعراض عن الناس، أو المشي بغرور وحسب، بل المراد محاربة كلّ مظاهر التكبّر والغرور، ولمّا كانت هذه الصفات تظهر في طليعة الحركات العاديّة اليوميّة، فإنّه وضع إصبعه على مثل هذه المظاهر الخاصّة.

ثمّ بيّن في الآية التالية أمرين وسلوكين أخلاقيين إيجابيّين في مقابل النهيين عن سلوكين سلبيين في الآية السابقة فيقول: ابتغ الاعتدال في مشيك: ﴿وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ﴾. وابتغ الاعتدال كذلك في كلامك ولا ترفع صوتك عاليا: ﴿وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾.

إنّ هاتين الآيتين في الحقيقة أمرتا بصفتين، ونهتا عن صفتين:

النهي عن **«التكبّر»** و**«العجب»**، فإنّ أحدهما يؤدّي إلى أن يتكبّر الإنسان على عباد الله، والآخر يؤدّي إلى أن يظنّ الإنسان أنّه في مرتبة الكمال وأسمى من الآخرين، وبالتالي سيغلق أبواب التكامل بوجهه، وإن كان لا يقارن بينه وبين الآخرين، وبالرغم من أنّ هاتين الصفتين مقترنتان غالبا، ولهما أصل مشترك، إلّا أنّهما قد تفترقان أحيانا.

أمّا الأمر بصفتين، فهما رعاية الاعتدال في العمل والكلام، لأنّ التأكيد على الاعتدال في المشي أو إطلاق الصوت هو من باب المثال في الحقيقة، والحقّ أنّ الإنسان الذي يتّبع هذه النصائح الأربع

موفّق وسعيد وناجح في الحياة، ومحبوب بين الناس، وعزيز عند الله.

وممّا يستحقّ الانتباه أنّ من الممكن أن نسمع أصواتا أزعج من أصوات الحمير في محيط حياتنا، كصوت سحب بعض القطع الفلزّية إلى بعضها الآخر، حيث يحسّ الإنسان عند سماعه بأنّ لحمه يتساقط، إلّا أنّ هذه الأصوات لا تمتلك صفة عامّة، إضافة إلى وجود فرق بين المزعج والقبيح من الأصوات، والحقّ هو أنّ صوت الحمار أقبح من كلّ الأصوات العاديّة التي يسمعها الإنسان، وبه شبّهت صرخات ونعرات المغرورين البلهاء، وليس القبح من جهة ارتفاع الصوت وطريقته فحسب، بل من جهة كونه بلا سبب أحيانا، لأنّ بعض المفسّرين يقولون: إنّ أصوات الحيوانات تعبّر غالبا عن حاجة، إلّا أنّ هذا الحيوان يطلق صوته أحيانا بدون مبرّر أو داع، وبدون أيّ حاجة أو مقدّمة! وربّما كان ما ورد في بعض الرّوايات من أنّ الحمار كلّما أطلق صوته فقد رأى شيطانا، لهذا السبب. قال البعض: إنّ صراخ كلّ حيوان تسبيح إلّا صوت الحمار![1].

وإذا رأينا في الرّوايات المرويّة عن الإمام الصادق عليه السلام، والتي فسّرت هذه الآية بالعطسة بصوت عال، أو الصراخ عند التكلّم والتحدّث، فإنّه في الحقيقة مصداق واضح لذلك[2].

---

(١) - الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج١٣، ص: ٤٧- ٤٩.

(٢) - راجع: مجمع البيان، ذيل الآية مورد البحث.

آداب المشي [١]

صحيح أنّ المشي مسألة سهلة وبسيطة، إلّا أنّ نفس هذه المسألة السّهلة يمكن أن تعكس أحوال الإنسان وأوضاعه الداخلية والأخلاقيّة، وقد تحدّد ملامح شخصيته، لأنّ روحيّة الإنسان وأخلاقه تنعكس في طيّات كلّ أعماله، كما قلنا سابقا، وقد يكون العمل الصغير حاكيا عن روحية متأصّلة أحيانا، ولمّا كان الإسلام قد اهتمّ بكلّ أبعاد الحياة، فإنّه لم يهمل شيئا في هذا الباب أيضا.

جاء في حديث عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: **«من مشى على الأرض اختيالا لعنته الأرض ومن تحتها ومن فوقها»**[٢].

وفي حديث آخر عن النّبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم أنّه نهى أن يختال الرجل في مشيه، وقال: **«من لبس ثوبا فاختال فيه خسف الله به من شفير جهنّم، وكان قرين قارون لأنّه أوّل من اختال فخسف الله به وبداره الأرض، ومن اختال فقد نازع الله عز وجل في جبروته»**[٣].

كذلك ورد عن الصادق عليه السلام أنّه قال: **«إنّ الله تبارك وتعالى فرض الإيمان على جوارح ابن آدم وقسّمه عليها وفرّقه فيها - إلى أن قال- وفرض على الرِّجلين أن لا تمشي بهما إلى شيء من معاصي الله،**

(١) - راجع: الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج١٣، ص:٤٩- ٥٠.

(٢) - ثواب الأعمال وأمالي الصدوق، طبقا لنقل تفسير نور الثقلين، الجزء ٤، صفحة ٢٠٧.

(٣) - من لا يحضره الفقيه، الشيخ الصدوق، ج٤، ص١٣.

وفرض عليهما المشي إلى ما يرضي الله عزّ وجلّ، فقال تعالى: ﴿ولا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحاً﴾ وقال: ﴿واقْصِدْ فِي مَشْيِكَ﴾[1].

وقد نقل ذلك عن نبي الإسلام العزيز صلى الله عليه وآله وسلم، وذلك أنّه كان قد مرّ من طريق، فرأى مجنونا قد اجتمع الناس حوله ينظرون إليه، فقال: **«علام اجتمع هؤلاء؟»** فقالوا: على مجنون يصرع، فنظر إليهم النّبي صلى الله عليه وآله وسلم وقال: **«ما هذا بمجنون! ألا أخبركم بالمجنون حقّ المجنون؟»** قالوا: بلى يا رسول الله، فقال: **«إنّ المجنون: المتبختر في مشيه، الناظر في عطفيه، المحرّك جنبيه بمنكبيه، فذلك المجنون وهذا المبتلى»**[2].

آداب الحديث[3]

وردت إشارة إلى آداب الحديث في مواعظ لقمان، وقد فتح في الإسلام باب واسع لهذه المسألة، وذكرت فيه آداب كثيرة من جملتها:

١- طالما لم تكن هناك ضرورة للحديث والتكلّم، فإنّ السكوت خير منه، كما نرى ذلك، في حديث عن الإمام الصادق عليه السلام: **«السكوت راحة للعقل»**[4].

---

(١) - أصول الكافي، الجزء الثّاني، صفحة ٢٨ باب (أنّ الإيمان مبثوث لجوارح البدن كلّها).

(٢) - بحار الأنوار، ج ٧٦، صفحة ٥٧.

(٣) - راجع: الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج١٢، ص ٤٩.

(٤) - الوسائل، الجزء صفحة ٥٣٢.

٢- وجاء في حديث عن الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام: **«من علامات الفقه: العلم والحلم والصمت، إنّ الصمت باب من أبواب الحكمة»**[١].

٣- وقد ورد التأكيد في روايات أخرى على أنّه لا ينبغي للمؤمن أن يسكت في المواضع التي يلزم فيها الكلام، وأنّ الأنبياء بعثوا بالكلام لا بالسكوت، وأنّ وسيلة الوصول إلى الجنّة والخلاص من النار هي الكلام في الموضع المناسب[٢].

آداب العشرة[٣]

لقد اهتمّت الروايات الإسلامية الواردة عن النّبي صلى الله عليه وآله وسلم وأئمّة أهل البيت عليهم السلام بمسألة التواضع وحسن الخلق والملاطفة في المعاملة، وترك الخشونة والجفاء في المعاشرة، اهتماما قلّ نظيره في الموارد الاخرى، وأفضل وأبلغ شاهد في هذا الباب هي الروايات الإسلامية نفسها، ومنها:

١- جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال: يا رسول الله، أوصني، فكان فيما أوصاه أن قال: **«الق أخاك بوجه منبسط»**[٤].

---

(١) - المصدر السابق.

(٢) - المصدر السابق.

(٣) - الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج١٣، ص: ٥١- ٥٢.

(٤) - بحار الأنوار، الجزء ٧٤، صفحة ١٧١.

٢- وفي حديث آخر عن النّبي صلى الله عليه وآله وسلم أنّه قال: **«ما يوضع في ميزان امرئ يوم القيامة أفضل من حسن الخلق»**[١].

٣- وجاء في حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السلام: **«البرّ وحسن الخلق يعمران الديار، ويزيدان في الأعمار»**[٢].

٤- ونقل عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: **«أكثر ما تلج به امّتي الجنّة تقوى الله وحسن الخلق»**[٣].

٥- وعن الإمام علي عليه السلام في شأن التواضع: **«زينة الشريف التواضع»**[٤].

٦- وأخيرا نطالع في حديث عن الإمام الصادق عليه السلام: **«التواضع أصل كلّ خير نفيس، ومرتبة رفيعة، ولو كان للتواضع لغة يفهمها الخلق لنطق عن حقائق ما في مخفيات العواقب ... ومن تواضع لله شرّفه الله على كثير من عباده ... وليس لله عزّ وجلّ عبادة يقبلها ويرضاها إلّا وبابها التواضع»**[٥].

---

(١) - أصول الكافي، الجزء ٢، باب حسن الخلق وما بعده صفحة ٨١، ٨٢.

(٢) - المصدر السابق. ن. ب.

(٣) - المصدر السابق. ن. ب.

(٤) - بحار الأنوار، الجزء ٧٥، صفحة ١٢١.

(٥) - نفس المصدر. ن. ص.

حكم لقمان

قصته مع ولده وحماره

روي أن لقمان الحكيم قال لولده في وصيته: لا تعلّق قلبك برضا الناس ومدحهم وذمهم، فإن ذلك لا يحصل، ولو (أنه) بالغ الإنسان في تحصيله بغاية قدرته، فقال له ولده ما معناه: أحب أن أرى لذلك مثلا أو فعالا أو مقالا، فقال له: أخرج أنا وأنت، فخرجا ومعهما بهيم (حمار)، فركبه لقمان وترك ولده يمشي خلفه، فاجتازا على قوم، فقالوا: هذا شيخ قاسي القلب، قليل الرحمة، يركب هو الدابة، وهو أقوى من هذا الصّبي، ويترك الصّبي يمشي وراءه، إن هذا بئس التدبير، فقال لولده: سمعت قولهم وإنكارهم لركوبي ومشيك؟ فقال: نعم، فقال: اركب أنت يا ولدي حتى أمشي أنا، فركب ولده ومشى لقمان، فاجتازا على جماعة أخرى، فقالوا: هذا بئس الوالد، وهذا بئس الولد، أما أبوه، فإنه ما أدّب هذا الصّبي حتى ركب الدابة، وترك والده يمشي وراءه، والوالد أحق بالاحترام والركوب، وأما الولد، فإنه قد عق والده بهذه الحال، فكلاهما أساء في الفعال، فقال لقمان لولده: سمعت؟ فقال: نعم. فقال: نركب معا الدابة، فركبا معا، فاجتازا على جماعة، فقالوا: ما في قلب هذين الراكبين رحمة، ولا عندهم من الله خير، يركبان معا الدابة،

يقطعان ظهرها، ويحمّلانها ما لا تطيق، لو كان قد ركب واحد، ومشى واحد، كان أصلح وأجود، فقال: سمعت؟ قال: نعم، فقال: هات حتى نترك الدابة تمشي خالية من ركوبنا، فساقا الدابة بين أيديهما وهما يمشيان، فاجتازا على جماعة، فقالوا: هذا عجيب من هذين الشخصين يتركان دابة فارغة تمشي بغير راكب، ويمشيان، وذموهما على ذلك كما ذموهما على كل ما كان. فقال لولده: أترى في تحصيل رضاهم حيلة لمحتال؟ فلا تلتفت إليهم، واشتغل برضى الله جل جلاله، ففيه شغل شاغل، وسعادة وإقبال في الدنيا ويوم الحساب والسؤال[1].

من حكم لقمان[2]

ذكر في التفسير أن مولى لقمان دعاه، فقال اذبح شاة فأتني بأطيب مضغتين منها، فذبح شاة وأتاه بالقلب واللسان، فسأله عن ذلك فقال إنهما أطيب شيء إذا طابا وأخبث شيء إذا خبثا.

وقيل إن مولاه دخل بيت الخلاء فأطال فيه الجلوس، فناداه لقمان: إن طول الجلوس على الحاجة يفجع منه الكبد، ويورث منه الباسور، ويصعد الحرارة إلى الرأس، فاجلس هونا وقم هونا، قال فكتب حكمته على الباب.

---

(١) - وردت القصة في كتاب: فتح الأبواب، ابن طاووس، ص٣٠٧- ٣٠٨.

(٢) - راجع: مجمع البيان في تفسير القرآن، ج٨، ص: ٤٩٦- ٤٩٧.

وقيل للقمان أي الناس شر قال الذي لا يبالي أن يراه الناس مسيئا، وقيل له ما أقبح وجهك قال تعتب على النقش أو على فاعل النقش، وقيل إنه دخل على داوود وهو يسرد الدرع وقد ليّن الله له الحديد كالطين، فأراد أن يسأله فأدركته الحكمة فسكت، فلما أتمها لبسها وقال: نعم لبوس الحرب أنت، فقال الصمت حكم وقليل فاعله، فقال له داوود بحق ما سميت حكيما.

وفي كتاب من لا يحضره الفقيه قال لقمان لابنه: يا بني إن الدنيا بحر عميق وقد هلك فيها عالم كثير، فاجعل سفينتك فيها الإيمان بالله، واجعل شراعها التوكل على الله، واجعل زادك فيها تقوى الله، فإن نجوت فبرحمة الله وإن هلكت فبذنوبك.

روى سليمان بن داوود المنقري عن حماد بن عيسى عن أبي عبد الله عليه السلام قال: في وصية لقمان لابنه: يا بني سافر بسيفك وخفّك وعمامتك وخبائك وسقائك وخيوطك ومخرزك، وتزود معك من الأدوية ما تنتفع به أنت ومن معك، وكن لأصحابك موافقا إلا في معصية الله عزَّ وجل، يا بني إذا سافرت مع قوم فأكثر استشارتهم في أمرك وأمورهم، وأكثر التبسم في وجوههم، وكن كريما على زادك بينهم، فإذا دعوك فأجبهم وإذا استعانوا بك فأعنهم، واستعمل طول الصمت وكثرة الصلاة وسخاء النفس بما معك من دابة أو ماء أو

زاد، وإذا استشهدوك على الحق فاشهد لهم، وأجهد رأيك لهم إذا استشاروك، ثم لا تعزم حتى تتثبت وتنظر، ولا تجب في مشورة حتى تقوم فيها وتقعد وتنام وتأكل وتصلي وأنت مستعمل فكرتك وحكمتك في مشورته، فإن من لم يمحص النصيحة من استشاره سلبه الله رأيه، وإذا رأيت أصحابك يمشون فامش معهم، فإذا رأيتهم يعملون فاعمل معهم، واسمع لمن هو أكبر منك سنا، وإذا أمروك بأمر وسألوك شيئا فقل نعم ولا تقل لا، فإن «لا» عيّ ولؤم، وإذا تحيّرتم في الطريق فانزلوا، وإذا شككتم في القصد فقفوا وتآمروا، وإذا رأيتم شخصا واحدا فلا تسألوه عن طريقكم ولا تسترشدوه، فإن الشخص الواحد في الفلاة مريب، لعله يكون عين اللصوص أو يكون هو الشيطان الذي حيركم، واحذروا الشخصين أيضا إلا أن تروا ما لا أرى، لأن العاقل إذا أبصر بعينه شيئا عرف الحق منه والشاهد يرى ما لا يرى الغائب.

وقال: يا بني إذا جاء وقت الصلاة فلا تؤخرها لشيء، صلّها واسترح منها فإنها دين، وصلّ في جماعة ولو على رأس زج ولا تنامنّ على دابتك، فإن ذلك سريع في دبرها وليس ذلك من فعل الحكماء، إلا أن تكون في محمل يمكنك التمدد لاسترخاء المفاصل، فإذا قربت من المنزل فانزل عن دابتك وابدأ بعلفها قبل نفسك، فإنها نفسك، وإذا أردتم النزول فعليكم من بقاع الأرض بأحسنها لونا وألينها تربة

وأكثرها عشبا، وإذا نزلت فصل ركعتين قبل أن تجلس، وإذا أردت قضاء حاجتك فابعد المذهب في الأرض، وإذا ارتحلت فصل ركعتين ثم ودع الأرض التي حللت بها وسلم على أهلها، فإن لكل بقعة أهلا من الملائكة، وإن استطعت أن لا تأكل طعاما حتى تبتدئ فتصدق منه فافعل، وعليك بقراءة كتاب الله ما دمت راكبا، وعليك بالتسبيح ما دمت عاملا عملا، وعليك بالدعاء ما دمت خاليا، وإياك والسير في أول الليل إلى آخره، وإياك ورفع الصوت في مسيرك.

يا بنيّ، إنّ الدنيا بحر عميق، قد غرق فيها عالم كثير، فلتكن سفينتك فيها تقوى الله، وحشوها الإيمان، وشراعها التوكّل، وقيّمها العقل، ودليلها العلم، وسكّانها الصبر.

ومن وصايا لقمان الحكيم[١]:

يا بني النساء أربع: اثنتان صالحتان واثنتان ملعونتان، فأما إحدى الصالحتين: فهي الشريفة في أهلها الذليلة في نفسها التي إن أعطيت شكرت وإن ابتليت صبرت، القليل في يديها كثير.

والثانية: الولود الودود تعود بخير على زوجها، هي كالأم الرحيم تعطف على كبيرهم وترحم صغيرهم، وتحب ولد زوجها وإن كانوا من غيرها، جامعة الشمل مرضية البعل مصلحة في النفس والأهل والمال والولد، فهي كالذهب الأحمر، طوبى لمن رزقها، إن شهد زوجها أعانته وإن غاب عنها حفظته.

وأما إحدى الملعونتين: فهي العظيمة في نفسها الذليلة في قومها، التي إن أعطيت سخطت وإن منعت عتبت وغضبت، فزوجها منها في بلاء وجيرانها منها في عناء، فهي كالأسد إن جاورته أكلك وإن هربت منه قتلك.

والملعونة الثانية: فهي قلًى[٢] عن زوجها وملهى جيرانها، إنما هي سريعة السّخطة، سريعة الدمعة إن شهد زوجها لم تنفعه، وإن غاب عنها فضحته، فهي بمنزلة الارض النشّاشة إن أسقيت أفاضته الماء وغرقت، وإن تركتها عطشت وإن رزقت منها ولدا لم تنتفع به، يا بني لو كانت

(١) - راجع: الاختصاص، الشيخ المفيد، ص٣٣٦.

(٢) - البغض. تبغض زوجها.

النساء تذاق كما تذاق الخمر ما تزوج رجل امرأة سوء أبدا.

يا بني أحسن إلى من أساء إليك، ولا تكثر من الدنيا فإنك على غفلة منها، وانظر إلى ما تصير منها، يا بني لا تاكل مال اليتيم فتفتضح يوم القيامة وتكلف أن ترده إليه، يا بني لو أنه أغنى أحد عن أحد لأغنى الولد عن والده، يا بني إن النار تحيط بالعالمين كلهم فلا ينجو منها أحد إلا من رحمه الله وقربه منه، يا بني لا يغرنك خبيث اللسان فإنه يختم على قلبه وتتكلم جوارحه وتشهد عليه، يا بني لا تشتم الناس فتكون أنت الذي شتمت أبويك، يا بني لا يعجبك إحسانك ولا تتعظمن بعملك الصالح فتهلك.

وقال: يا بني إن كل يوم يأتيك يوم جديد يشهد عليك رب كريم، يا بني إنك مدرج في أكفانك ومحل قبرك ومعاين عملك كله، يا بني كيف تسكن دار من أسخطته؟ أم كيف من عصيته؟ يا بني عليك بما يعنيك، ودع عنك ما لا يعنيك، فإن القليل منها يكفيك، والكثير منها لا يعنيك، يا بني لا تؤثرن على نفسك سواها ولا تورث مالك أعداءك، يا بني إنه قد أحصى الحلال الصغير فكيف بالحرام الكثير! يا بني اتق النظر الى ما لا تملكه وأطل التفكر في ملكوت السموات والأرض والجبال وما خلق الله، فكفى بهذا واعظا لقلبك، يا بني اقبل وصية الوالد الشفيق، يا بني بادر بعملك قبل أن يحضر أجلك وقبل

أن تسير الجبال سيرا، وتجمع الشمس والقمر، وتغير السماء وتطوى وتنزل الملائكة صفوفا خائفين حافين مشفقين، وتكلف أن تجاوز الصراط وتعاين حينئذ عملك، وتوضع الموازين، وتنشر الدواوين، يا بني تعلمت سبعة آلاف من الحكمة فاحفظ منها أربعا ومر معي إلى الجنة: احكم سفينتك فإن بحرك عميق، وخفف حملك فإن العقبة كؤود[1]، وأكثر الزاد فإن السفر بعيد، واخلص العمل فان الناقد بصير.

ومن مواعظه: يا بني اتعظ بالصغير قبل إن ينزل بك الكبير، يا بني املك نفسك عند الغضب حتى لا تكون لجهنم حطبا، يا بني الفقر خير من أن تظلم وتطغى، يا بني إياك أن تستدين فتخون من الدين، يا بني إياك أن تستذل فتخزى، يا بني إياك أن تخرج من الدنيا فقيرا وتدع أمرك وأموالك عند غيرك فيما فتصيره أميرا، يا بني إن الله تعالى رهن الناس باعمالهم فويل لهم مما كسبت أيديهم وأفئدتهم.

ومنها: يا بني لا تأمن الدنيا والذنوب والشيطان فيها، يا بني إنه قد افتتن الصالحون من الأولين فكيف ينجو منه الآخرون، يا بني اجعل الدنيا سجنك فتكون الآخرة جنتك، يا بني إنك إن لم تكلف أن تشيل الجبال ولم تكلف ما لا تطيقه، فلا تحمل البلاء على كتفك ولا تذبح نفسك بيدك، يا بني إنك كما تزرع تحصد وكما تعمل تجد، يا بني

(١) - صعبة وشاقة.

لا تجاورن الملوك فيقتلوك، ولا تطعهم فتكفر، يا بني جاور المساكين واخصص الفقراء والمساكين من المسلمين، يا بني كن لليتيم كالأب الرحيم وللأرملة كالزوج العطوف، يا بني إنه ليس كل من قال: اغفر لي غفر له إنه لا يغفر إلا لمن عمل بطاعة ربه.

وقال: يا بني الجار ثم الدار، يا بني الرفيق ثم الطريق، يا بني لو كانت البيوت على العجل ما جاور رجل سوء أبدا، يا بني الوحدة خير من صاحب السوء، يا بني الصاحب الصالح خير من الوحدة، يا بني نقل الحجارة والحديد خير من قرين السوء. يا بني إني نقلت الحجارة والحديد فلم أجد شيئا أثقل من قرين السوء. يا بني إنه من يصحب قرين السوء لا يسلم ومن يدخل مداخل السوء يتهم.

ومنها: يا بني من ذا الذي عبد الله فخذله، ومن ذا الذي ابتغاه فلم يجده، يا بني ومن ذا الذي ذكره فلم يذكره، ومن ذا الذي توكل على الله فوكله إلى غيره، ومن ذا الذي تضرع إليه جل ذكره فلم يرحمه، يا بني شاور الكبير ولا تستحي من مشاورة الصغير، يا بني إياك ومصاحبة الفسّاق، هم كالكلاب إن وجدوا عندك شيئا أكلوه وإلا ذموك وفضحوك، وإنما حبهم بينهم ساعة، يا بني معاداة المؤمنين خير من مصادقة الفاسق، يا بني المؤمن تظلمه ولا يظلمك وتطلب عليه فيرضى عنك، والفاسق لا يراقب الله فكيف يراقبك، يا بني استكثر

من الاصدقاء ولا تأمن من الأعداء فإن الغل في صدورهم مثل الماء تحت الرماد.

ومن وصاياه لابنه أيضا: يا بني ابدأ الناس بالسلام والمصافحة قبل الكلام، يا بني لا تكالب الناس فيمقتوك ولا تكن مهينا فيذلوك، ولا تكن حلواً فيأكلوك، ولا تكن مراً فيلفظوك، يا بني إنك منذ يوم هبطت من بطن أمك استقبلت الآخرة واستدبرت الدنيا، فإنك إن نلت مستقبلها أولى بك أن تستدبرها، يا بني إياك والتجبر والتكبر والفخر فتجاور إبليس في داره، يا بني دع عنك التجبر والكبر ودع عنك الفخر واعلم أنك ساكن القبور، يا بني اعلم أنه من جاور إبليس وقع في دار الهوان لا يموت فيها ولا يحيى، يا بني ويل لمن تجبر وتكبر كيف يتعظم من خلق من طين وإلى طين يعود، ثم لا يدري إلى ماذا يصير؛ إلى الجنة فقد فاز أو إلى النار فقد خسر خسرانا مبينا وخاب، يا بني كيف ينام ابن آدم والموت يطلبه، وكيف يغفل ولا يغفل عنه، يا بني إنه قد مات أصفياء الله عزَّ وجل وأحباؤه وأنبياؤه صلوات الله عليهم فمن ذا بعدهم يخلد فيترك، هذا بعض ما أوصى به لقمان ابنه.

اللهم وفقنا لاتباع القول الحسن والعمل الصالح، واختم لنا بالخير إنك سميع مجيب.

والحمد لله رب العالمين

المصادر

١- القرآن الكريم.

٢- نهج البلاغة.

٣- الميزان في تفسير القرآن.

٤- الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل.

٥- البرهان في تفسير القرآن.

٦- تفسير المراغي.

٧- تفسير نور الثقلين.

٨- الدر المنثور في تفسير المأثور.

٩- في ظلال القرآن.

١٠- تفسير الفخر الرازي.

١١- تفسير الكامل لابن الأثير.

١٢- مجمع البيان في تفسير القرآن.

١٣- الجديد في تفسير القرآن المجيد.

١٤- التفسير المظهري.

١٥- من هدى القرآن.

١٦- تفسير من وحي القرآن.

١٧- التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج.

١٨- أصول الكافي.

١٩- بحار الأنوار.

٢٠- وسائل الشيعة.

٢١- من لا يحضره الفقيه.

٢٢- الاختصاص.

٢٣- معجم رجال الحديث.

٢٤- سفينة البحار.

٢٥- كتاب التسهيل لعلوم التنزيل.

الفهرس

الإهداء ٥

المقدّمة: ٧

الفصل الأول: الخضر العالم ١١

الخضر الرجل العالم ١٣

قصة الخضر مع موسى عليه السلام ٢٠

القصة في مصادر اليهود ٤١

الفصل الثاني: ذو القرنين الحاكم ٥١

قصة (ذو القرنين): ٥٣

ذو القرنين الحاكم العادل ٥٥

لماذا سمي (ذو القرنين) بهذا الاسم؟ ٥٨

أين يقع سد ذي القرنين؟ ٦٥

يأجوج ومأجوج ٦٧

بناء السد ٧٠

الفصل الثالث: لقمان الحكيم ٨٩

لقمان الحكيم ٩١

قصة لقمان وحكمته ٩٣

معنى الحكمة ٩٧

موعظة لقمان لابنه ١٠٢

آداب المشي ١١٥

آداب الحديث ١١٦

آداب العشرة ١١٧

حكم لقمان ١١٩

قصته مع ولده وحماره ١١٩

من حكم لقمان ١٢٠

ومن وصايا لقمان الحكيم ١٢٤

المصادر ١٢٩

الفهرس ١٣١